التعبد بالأسماء والصفات

لمحات علمية إيمانية

وليد بن فهد الودعان



التعبد بالأسماء والصفات

(لمـــحات علمية إيمانية)

تأليف

أبي عبد الملك
وليد بن فهد الودعان
المحاضر بكلية الشريعة بالرياض



ومضات

ـــ الطمع في لحاقهم وسيلة إلى سلوك طريقهم.

العز بن عبد السلام: شجرة المعارف والأحوال(٨٢).

ـــ يا معرقلا في شرك الهوى حموة عزم وقد خرقت الشبكة.

ـــ هيهات ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد مواصلة السرى، ولا عبروا إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب.

ـــ إذا ونت الركاب في السير فبثوا حداة العزم في نواحيها يطيب لها السرى.

ـــ فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج.

ـــ يا من يستعظم أحوال القوم تنقل في المراقي تصل.

ابن القيم: بدائع الفوائد(٣/٢٣٢، ٢٢٨، ٢٢٥، ٢١٨، ٢١٧).

ـــ فهذه طريقهم حقا:

فان شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم ... فقـــــد وضحت للسالكين عيانا

ابن القيم: الرسالة التبوكية(٥٤).





بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

وبعد:

في مثل هذه الظروف الراهنة حيث تداعت الأمم على هذه الأمة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها،وتكاثرت الجراح فلا يكاد جرح يلتئم ـــ إن التئم ـــ إلا وآخر يندمل ترتفع أصوات المحبين والغيورين والعقلاء من هذه الأمة داعية إلى التربية الصادقة،وإنشاء اللبنة التي يمكنها أن تقاوم الفتن والبلاء بنفس إيمانية راضية وعقل مفكر بناء،وتختلف أساليب تلك الدعوات الغيورة البناءة إلا أنها تلتقي عند هدف واحد تسعى إلى تحقيقه،وعند النظر وقدح الذهن في تلك الأساليب ترى أنها أساليب هادفة بحق غير أن كثيرا منها هو اهتمام بجزئيات الحلول دون أن تسمو إلى الحلول الإجمالية العامة التي تغني في كثير من الأحيان عن كل الجزئيات أو كثير منها.

وإن من تلك الحلول الكلية التي عليها مدار كثير من الحلول بل عليها مدار كل الحلول:موضوع التعبد بالأسماء والصفات،فهذا الأمر هو أس الحلول وأساسها،وهو الدواء الناجع والترياق المجرب،وإن هذا الطرق الموجز لهذا الموضوع لهو لبنة يسيرة ضمن بنيان شامخ لا يكفيه طرق موجز،ولكن قديما قيل:الحر تكفيه الإشارة.

ولعلك أن تقول لماذا طرق هذا الموضوع لا سيما في مثل هذه الأحداث،فأقول إن ترسيخ هذا الأمر في قلوب الناس لهو المعين الصافي الذي لا تكدره الدلاء،ولهو الجذع المتسق الذي لا تعصف به الحوادث ولا تؤثر فيه المتغيرات ـــ بإذن الله ـــ ،ولذا كان طرقه وتربية المجتمع عليه هو الحل لمعضلاتنا،والدواء لمشكلاتنا،وهو مصدر قوتنا،وطريق عزنا،وهل عمار القلوب إلا بأسماء الله وصفاته،وهل عمار المجتمعات إلا بعمار القلوب.

ولعلك لا ترى لي في هذه الرسالة المرقومة إلا بعض اللمسات التي لا بد منها،فما أنا إلا ناقل ومرتب،وأنى لي الخوض في هذا البحر الخضم بحر العارفين والعباد الزاهدين وأنا مزجى البضاعة قليل التجربة،وهل أنا إلا واقف بالباب وسائل الدخول على الأعتاب مع قلة المعرفة وكثرة الذنوب،وأنى لي الدخول مع أعلام هذا الباب وأقطابه ورواده وأسياده،وقد قيل رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.





ولذا اقتصرت على النقل من الأئمة العارفين والجمع لكلامهم الثمين ليكون تذكرة لنفسي وإرشادا لها ومعينا لها على سلوك الطريق فما على الله صعب ولا عزيز،ثم تذكرة لإخواني لا سيما طلبة العلم والمعتنين به؛ذلك أن هذا المسلك العظيم ــ مسلك عبودية القلب المؤثر على ما سواه من الجوارح والأركان ــ من جملة المسالك التي يغفل عنها كثير من الناس،إذ يعتني الكثير بالظواهر والرسوم ويغفل عن الاعتناء بالقلب وعمله،وهو قطب العمل وأساسه.

والأسماء والصفات لها ارتباط وثيق بعمل القلب،فهي سائق القلب وحاديه إلى الله عز وجل،ولذا كان هذا الموضوع من مهمات عمل القلب،بل إنه بالنظرة الشاملة الواعية أهم مهماته وأعظم أعماله.

وقد سميت هذا المؤلف الموجز باسم التعبد بالأسماء والصفات(لمحات وتطبيقات)،مع العلم أن لفظة الدعاء أولى،فهي مع شمولها للتعبد والمسألة لفظ القرآن الكريم،ولذا قال ابن القيم:" من قال يتخلق بأسماء الله فإنها ليست بعبارة سديدة،وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة،وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي التعبد،وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال،فمراتبها أربعة أشدها إنكارا عبارة الفلاسفة وهي التشبه وأحسن منها عبارة من قال التخلق وأحسن منها عبارة من قال التعبد وأحسن من الجميع الدعاء وهي لفظ القرآن"[1].

غير أن لفظ التعبد أدل على المقصود من هذه الرسالة؛إذ لا يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظة الدعاء إلا دعاء المسألة،وقد يظن أن المقصود من الرسالة هو ذاك فقط،وهو موضوع كثيرا ما طرق ،ولهذا الملحظ وسمت هذه الرسالة باسم التعبد،وهو لفظ دارج في ألفاظ العلماء المنظِّرين لهذا المسلك كابن القيم وغيره كما ستراه واضحا في بعض أقوالهم المنقولة في ثنايا هذه الرسالة،ثم إن لفظ التعبد يلتقي مع لفظ العبودية فهما من معين واحد ومرادهما واحد،فإن المراد بالتعبد بالأسماء والصفات العبودية لله بها.

هذا وإن موضوع هذه الرسالة مما تعجز الكلمات والعبارات أن تحيط به إلا أن القصد هو الإشارة لعظمته وبيان شيء من آثاره على التربية والسلوك،وبيان حاجة الناس إليه وضرورة تنبيههم على أهميته بكل الوسائل الممكنة والمتاحة كالرسائل والمحاضرات والكلمات وغيرها.

وقد بثثت التطبيقات المبينة لهذا الموضوع في ثنايا هذه الرسالة لتكون عنوانا لما بعدها،ودليلا يضيء للسالك في هذا الباب دربه وطريقه ولينسج على منواله،والموفق من وفقه الله.

---

(١) بدائع الفوائد(١/١٦٤).





ولا أنسى في هذه المقدمة أن أقدم شكري لكل من قرأ هذه الرسالة وأتحفني بملحوظاتـــه،وهم الـــشيخ الدكتور:عبد الرحمن بن صالح المحمود،وشيخنا النحوي أنور عبد الله بن عبد الرحمن الفضفري،والـــشيخ عبد الله بن مانع العتيبي،والشيخ إبراهيم بن فهد الودعان،والشيخ ماجد بن عبد الله الجوير،وأشكر الشيخ ياسر الثميري على تعاونه في إيصال الرسالة إلى بعض المشايخ،وأسأل الله أن يجعل عملـــهم مـــشكورا وذنبهم مغفورا.

أسأل الله أن يجعل هذه الرسالة مباركة نافعة مؤدية للغرض منها،وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم،إنه بر رحيم،وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



مقدمتـــــــان:

وقبل الولوج في الموضوع أقدم بمقدمتين أراهما مهمتين جدا،غير أني أوجز القول فيهما بما يخدم موضوعنا في هذه الرسالة؛إذ الاستفاضة فيهما تحتمل رسائل عديدة،وكل واحد منهما موضـــوع عظـــيم قـــائم بذاته،وهاتان المقدمتان هما:

المقدمة الأولى:تزكية النفس.

إن مما ينبغي أن يعتني به كل أحد فضلا عن المنتسب للعلم ـــ لا سيما في خضم غمرة الحياة الـــصاخبة والفتن المتلاحقة والملهيات المتتابعة ـــ أن يزكي نفسه ويجلو صدأ قلبه فإن النفوس تكسل وتحتاج إلى من يحدوها،وإن القلوب تصدأ فتحتاج إلى ما يجليها،والعناية بالنفس والسعي إلى تزكيتها وتطهيرها من فترة إلى أخرى هو السبيل الأمثل والطريق الأقوم للسمو بالروح والسلامة من الفترة والملال الذي قد يتلـــوه الجمود أو الانقطاع،وقد أمر الله عز وجل بتزكية النفس ومتابعتها ومحاسبتها وحث على ذلك ،بل وربط الفلاح بذلك فقال تعالى : (قد أفلح من زكاهـــا)[الـــشمس ٩]،وقـــال تعـــالى: (قـــد أفلـــح مـــن تزكى)[الأعلى١٤].

(تزكية النفس دعوة الأنبياء)

وتزكية النفس هي دعوة الأنبياء وخلاصة رسالتهم ،ولذا لما دعا موسى عليه السلام فرعون قال له: (هل لك إلى أن تزكى)[النازعات ١٨]،وقال الله تعالى عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبـــل لفـــي ضلال مبين)[الجمعة ٢].

قال ابن القيم : "وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهـــدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيـــب، فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقيـــاد والتسليم لهم "[٢].

---

(٢) مدارج السالكين(٢/٣٢٨).



(معنى تزكية النفس)

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معنى تزكية النفس بكلمة جامعة مانعة حيث قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده فإنه لا إله إلا الله ،وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه في كل عام و لم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللائمة ولا المريضة ،ولكن من أوسط أموالكم فإن الله عز وجل لم يسألكم خيره ،و لم يأمركم بشره، وزكى عبد نفسه)، فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله ، قال: (يعلم أن الله معه حيث ما كان)[3].

وهذه الكلمة هي جماع معنى الإحسان،وهي تعبد باسم الله العليم وما يقتضيه العلم من صفات الكمال والجمال،ففي الحديث إشارة إلى التعبد بالأسماء والصفات وأن ذلك الطريق الأمثل لتزكية النفس وتطهيرها.

(تزكية النفس بالتوحيد)

وإن أعظم ما تزكو به النفوس هو التوحيد،قال ابن كثير في قوله تعالى: (وويل للمشركين ،الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون)[فصلت ٦ــ٧]:" قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله،وكذا قال عكرمة،وهذا كقوله تبارك وتعالى: (قد أفلح من زكاها ،وقد خاب من دساها) [الشمس ٩ــ١٠]،وكقوله جلت عظمته: (قد أفلح من تزكى،وذكر اسم ربه فصلى) [الأعلى١٤ــ١٥].، وقوله عز وجل : (فقل هل لك إلى أن تزكى)، والمراد بالزكاة هاهنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ،ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك"[4].

(الأسماء والصفات وأثرها في تزكية النفس)

وإن الأسماء والصفات من التوحيد في الذروة العظيمة والمكانة الجليلة،ولذا كان الاعتناء بها والتعبد بمقتضاها من تزكية النفس ومن السلوة بتوحيد الله تعالى عن غيره،فكان على كل عبد أن يعتني بها لنجاة نفسه وسلامة قلبه،وهل التوحيد إلا أثر ونتاج للتعبد بأسماء الله الحسنى وعقل النفس لها وتدبر القلب لمعانيها والتفاته بكليته إلى من له تلك الأسماء الحسنى جل وعلا،وإن ذلك والله لهو تحقيق التوحيد الذي

---

(٣) رواه البيهقي في سننه الكبرى(٤/٩٦)وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(١٠٤٦)،وهو عند أبي داود(١٥٨٢)إلى قوله: (بشره)،وقوله(رافدة عليه)أي معينة،و(الدرنة)الجرباء،وأصل الدرن الوسخ،و(الشرط)رذالة المال.انظر معالم السنن(٢/٢٤٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم(٤/٩٩)وانظر منه(٣/٢٤٩).



قال فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب :باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب،فإن من أعطى هذه الأسماء حقها على التحقيق فلا بد وأن يأتي بلوازمها ومقتضياتها،فالألوهية والربوبية من مقتضيات تلك الأسماء الحسنى،وتحقيق التوحيد هو :"معرفته،والاطلاع على حقيقته،والقيام بها علما وعملا،وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفا،وإنابة وتوكلا،ودعاء وإخلاصا وإجلالا وهيبة،وتعظيما وعبادة،وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله،ولا إرادة لما حرم الله،ولا كراهة لما أمر الله،وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله،فإن الإله هو المألوه المعبود"[٥].

وخلاصة القول في تحقيقه أنه:"تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي"[٦].

وإذا تمكنت الأسماء والصفات من قلب العبد خلصت قلبه من كل شائبة شركية أو بدعية،وطهرت نفسه من كل دنس ولو كان قليلا،ألا ترى أن اسم الجلالة: (الله) إذا تمكن من القلب طرد منه كل شرك وبدع،ومن تحقق له ذلك كان قريبا من ربه وخالقه بعيدا عن كل ما يغضبه ولا يحبه من المعاصي صغيرها وكبيرها،وقد ذكر ابن القيم في قوله تعالى في الحديث القدسي: (لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة)[٧] تحقيقا بديعا يكتب بماء الذهب حيث ذكر أن الحديث ينبغي أن يفهم في ظل:" ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح وتعلقها بها،وإلا لم يفهم مراد الرسول صلى الله عليه وسلم ويقع الخلط والتخبيط، فاعلم أن هذا النفي العام للشرك أن لا يشرك بالله شيئا ألبتة لا يصدر من مصر على معصية أبدا ،ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتى لا يشرك بالله شيئا، هذا من أعظم المحال،ولا يلتفت إلى جدلي لاحظ له من أعمال القلوب بل قلبه كالحجر أو أقسى يقول: وما المانع ؟وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعا لم يلزم منه محال لذاته، فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ورجائه لغير الله وحبه لغير الله وذله لغير الله وتوكله على غير الله ما يصير به منغمسا في بحار الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل، فإن ذل المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفا من غير الله وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه فيكون عمله لا بالله ولا لله وهذا حقيقة الشرك، نعم قد يكون معه توحيد أبي جهل وعباد الأصنام وهو توحيد الربوبية وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله ،ولو أنجى هذا التوحيد وحده لأنجى

---

(٥) تيسير العزيز الحميد(٩٩).

(٦) فتح المجيد(٨٧).

(٧) رواه الترمذي(٣٥٤٠)،وسيأتي بتمامه.



عباد الأصنام والشأن في توحيد الإلهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين، والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا مصرا عليها غير تائب منها مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع والذل والخوف والرجاء للرب تعالى"[٨].

وإذا تبين لك ما سبق علمت أهمية هذا الباب في تزكية النفس.وبالله التوفيق.

المقدمة الثانية:أعمال القلوب.

قد يغفل كثير من الناس عن الاعتناء بأعمال القلوب مع أن ذلك من جملة الإيمان،بل إن ذلك من أول ما يدخل في الإيمان،قال ابن تيمية:"ولابد أن يدخل في قوله اعتقاد القلب أعمال القلب المقارنة لتصديقه، مثل حب الله وخشية الله والتوكل على الله ونحو ذلك ،فان دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها"[٩].

(عمل القلب أهم من عمل الجوارح)

وعمل القلب أشد وجوبا من عمل الجوارح،ولذا قال ابن القيم موضحا ذلك:" ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب وأنها لا تنفع بدونها،وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم فهي واجبة في كل وقت"[١٠].

وقال:" وعمل القلب كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره والرضى به وعنه والموالاة فيه والمعاداة فيه والذل له والخضوع والإخبات إليه والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة"[١١].

---

(٨) مدارج السالكين(١/٣٥٤ــ٣٥٥).

(٩) مجموع الفتاوى(٧/٥٠٦).

(١٠) بدائع الفوائد(٣/١٩٣)،وانظر التحفة العراقية ضمن مجموع الفتاوى(١٠/٦).

(١١) مدارج السالكين(١/١١٤)،وانظر تجريد التوحيد المفيد للمقريزي(١١٧).





ولذا كان عمل القلب أعظم خطرا من عمل الجوارح،وأشد أمرا فمن أتى بعمل الجوارح غافلا عن عمل القلب كان ضالا أو مقصرا بحسب نوع تركه لعمل القلب،قال ابن القيم :"إن لله على العبد عبـــوديتين عبودية باطنة وعبودية ظاهرة، فله على قلبه عبودية وعلى لسانه وجوارحه عبوديـــة، فقيامـــه بـــسورة العبودية الظاهر مع تعريه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يقربه إلى ربه ولا يوجب له الثواب وقبـــول عمله، فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر ،فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح "[١٢].

وإنما كان لعمل القلب هذه الأهمية الكبيرة لأنه سائق النفس وقائدها،ولذا "إذا قام بالقلـــب التـــصديق بـــ(الله) والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة،فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله ،كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلـــب هـــو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما في الـــشجرة الـــتي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان قال تعالى: (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها)[إبراهيم ٢٤ـــ٢٥]،وهي كلمة التوحيد ،والشجرة كلمـــا قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها ،وفروعها أيضا إذا اغتذت بـــالمطر والـــريح أثـــر ذلـــك في أصلها،وكذلك الإيمان في القلب و الإسلام علانية، ولما كانت الأقـــوال والأعمـــال الظـــاهرة لازمـــة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها"[١٣].

(ارتباط عمل القلب بعمل الجوارح)

غير أن ما ذكر من العناية بعمل القلب ليس معناه الاقتصار عليه دون عمل الجوارح،إذ بين عمل القلب وعمل الجوارح تلازم ضروري،قال ابن تيمية:" وكذلك أعمال القلب لابد أن تؤثر في عمل الجـــسد، وإذا كان المقدم هو الأوجب سواء سمي: باطنا أو ظاهرا فقد يكون ما يسمى باطنا أوجب مثـــل تـــرك الحسد والكبر فانه أوجب عليه من نوافل الصيام، وقد يكون ما سمي ظاهرا أفضل مثل قيام الليل فانـــه

---

(١٢) بدائع الفوائد(٣/١٩٢).

(١٣) مجموع الفتاوى(٧/٥٤١ـــ٥٤٢)وما بين المعكوفين زيادة مني،وانظر الفوائد(٢٠٣).



أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب من جنس الغبطة ونحوها،وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر"[١٤].

وقال:" إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك، وأمور ظاهرة من أقوال وأفعال قد تكون عبادات وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك ،وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ولا بد ارتباط ومناسبة فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورا وأحوالا"[١٥].

وقال ابن القيم :"فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف و لم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه من النار"[١٦].

وهذا التلازم بين الظاهر والباطن يبين لك أن نقص أحدهما مؤثر على نقص الآخر،فالنقص في الأعمال الظاهرة إنما هو لنقص ما في القلب من الإيمان،كما أن التفريط في الأعمال الظاهرة مؤثر على نقص الإيمان القلبي،وكمال الإيمان الواجب الذي في القلب لا يمكن مع انعدام الأعمال الظاهرة الواجبة،بل يلزم من وجود هذا كاملا وجود هذا كاملا كما يلزم من نقص هذا نقص هذا[١٧].

(أقسام السائرين إلى الله في أعمال القلوب)

و السائرون إلى الله في أعمال القلوب أقسام :

الأول:قسم اعتنوا بالأعمال الظاهرة وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها وإن لم يكونوا خالين من أصلها، ولكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال الظاهرة.

فترى أحدهم يقيم الصلاة غير أنه لا يعتني بخشوعها وإظهار الذل والاستكانة فيها،ويعتني بعدم سماع المحرم من غيبة أو نميمة غير أن قلبه مخمور بالحقد والكبر والعجب.

---

(١٤) مجموع الفتاوى(١١/٣٨١ــ٣٨٢)،وانظر مجموع الفتاوى(٢٦/٢٥).

(١٥) اقتضاء الصراط المستقيم(١/٨٠).

(١٦) الفوائد(١٧٩ــ١٨٠).

(١٧) انظر مجموع الفتاوى(٧/٥٨٢).

وهذا حال كثير من الناس،بل وقد ينتسب أحدهم إلى العلم ويعتني بالأعمال الظاهرة،وقلبه مبتلى وهو لا ينتبه لذلك ولا يعقله.

الثاني:قسم صرفوا اهتمامهم بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده وحفظ الخواطر ،واعتنوا بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة،غير أنهم تركوا بعض ما يحبه الله من الأعمال الظاهرة كالدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير ونحو ذلك.

فالأولون قصَّروا حيث أهملوا أعمال القلوب و لم يلتفتوا إليها وعدوها فضلا أو فضولا،والآخرون قصَّروا حيث قصروا نظرهم وعملهم عليها و لم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح.

وقسم توسطوا فاعتنوا بأعمال القلوب كما اعتنوا أيضا بالأعمال الظاهرة ،غير أن لعمل القلب عندهم فضلا.

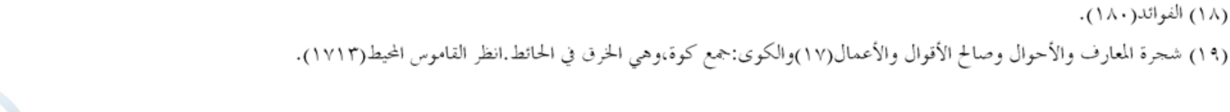
فهؤلاء هم الذين وفقهم الله فجمعوا بين عبودية الظاهر وعبودية الباطن،وهذا طريق السابقين العارفين[١٨].

(الأسماء والصفات وأثرها في الترابط بين عمل القلب وعمل الجوارح)

وباب الأسماء والصفات مما يظهر فيه التلازم بين عمل القلب وعمل الجوارح،فالتأمل فيها والتعبد بمقتضاها يبعث على الربط بين العملين،فالتعبد باسم الله العليم يبعث على التقوى وحفظ الجوارح كما يبعث على حفظ القلب والخواطر،وكذلك بقية الأسماء فإنها تبعث على التوكل والإنابة والمحبة والخوف والرجاء وما يترتب على ذلك من أعمال الجوارح من فعل ما يحبه الله والمسابقة إلى فعله وترك ما يبغضه الله والبعد عنه.

قال العز بن عبد السلام:"المعارف كوى ينظر منها بالبصائر إلى عالم الضمائر،فتشاهد القلوب ذاته وصفاته،فتعامله بما يليق بجلاله وجماله،ثم تأمر الأعضاء والجوارح بأن تعامله بما يليق بعظمته وكماله"[١٩].

ومما سبق يتبين مكانة هذا الموضوع من تزكية النفس وعبودية القلب،وأنه من الوسائل الأولية في هذا الباب والتي قد يغفلها كثير من الناس،ولذا كان هذا الطرح لهذا الموضوع تذكيرا بأهميته ودخوله في باب التزكية والتنقية.



(١٨) الفوائد(١٨٠).

(١٩) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال(١٧)والكوى:جمع كوة،وهي الخرق في الحائط.انظر القاموس المحيط(١٧١٣).



وهذان الأمران وإن كانا مما يوضح أهمية الموضوع غير أني قدمتهما على بيان أهمية الموضوع لضرورة التنبيه عليهما على جهة الخصوص.

أهمية موضوع التعبد بالأسماء والصفات:

إن هذا الموضوع لهو من أعظم الموضوعات قدرا وأشرفها شأنا،والاعتناء به اعتناء بباب عظيم من أبواب الديانة،وإن مما يبرز أهميته:

أولا: العلم بالأسماء والصفات أشرف العلوم:

إن من القواعد المقررة عند أهل العلم أن شرف العلم بشرف المعلوم،ولما أن كان هذا العلم متعلقا بالله تعالى كان أعظم العلوم وأجلها،ولذا جعل ابن القيم علم الأسماء والصفات من أشرف علوم الخلق[٢٠]،وكيف لا يكون كذلك وأعظم العلم هو العلم بالله تعالى،وأعظم العلم به سبحانه العلم بأسمائه وصفاته،بل إن ذلك جماع العلم،قال ابن القيم ــ بعد أن ذكر نوعي معرفة الله،ومنها المعرفة الخاصة الموجبة للحياء من الله والأنس به ــ:"وجماع ذلك الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر"[٢١].

وقال ابن العربي في فضل العلم بالأسماء:"شرف العلم بشرف المعلوم،والباري أشرف المعلومات،فالعلم بأسمائه أشرف العلوم"[٢٢].

وقال العز بن عبد السلام :"فالتوسل إلى معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته أفضل من التوسل إلى معرفة أحكامه"،وقال في أقسام الوسائل:"وسيلة إلى ما هو مقصود في نفسه كتعريف التوحيد وصفات الإله،فإن معرفة ذلك من أفضل المقاصد والتوسل إليه من أفضل الوسائل"[٢٣]،وقال:"معرفة الله عز وجل،ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى،وهي أفضل الأعمال شرفا وثمارا وآثارا"[٢٤].

---

(٢٠) انظر مدارج السالكين(٢/٤٢٠).

(٢١) الفوائد(٢٠٩).

(٢٢) أحكام القرآن(٢/٨٠٤).

(٢٣) قواعد الأحكام(١/١٠٤،١٠٥).

(٢٤) شجرة المعارف والأحوال (١٢)وانظر منه(١٦).





ثانيا: العلم بالأسماء والصفات هو الطريق لمعرفة الله تعالى:

ذلك أن الله تعالى لا تراه في الدنيا العيون،ولا تحيط به الأوهام والظنون فكان باب الأسماء والصفات والتعبد لله بها هو الطريق الأمثل لمعرفة الله تعالى،فهو حادي القلوب إلى علام الغيوب،وشاحذ الهمم في درب السالكين إلى عبادة رب العالمين.

قال ابن القيم:" فالإيمان بالصفات ومعرفتها وإثبات حقائقها وتعلق القلب بها وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته،وهو روح السالكين ،وحاديهم إلى الوصول ،ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصروا، فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له ولا طلب ولا سلوك له، وأعظم الشواهد صفات محبوبهم ونهاية مطلوبهم،وذلك هو العَلَم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه"(٢٥).

ثالثا:العلم بالأسماء والصفات أصل الدين،وسر العبودية:

إن علم الأسماء والصفات هو أصل الدين،وسر العبودية،قال ابن تيمية:"فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية،وأفضل ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول،فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا"(٢٦)،ويقول عن معرفة الله:"الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب،بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية"(٢٧)،ويقول ابن القيم:"اعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل و لم يعطلها وعرف معنى الإلهية وحقيقتها"(٢٨)،وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن:"أجل الفوائد وأشرفها ما دل عليه الكتاب العزيز من معرفة الله بصفات كماله ونعوت جلاله وآياته ومخلوقاته ومعرفة ما يترتب على ذلك من عبادته وطاعته وتعظيم أمره ونهيه،وأدلة ذلك مبسوطة في كتاب الله،وأكثر الناس ضل عن هذين الأصلين مع أنهما زبدة الرسالة ومقصود النبوة ومدار الأحكام عليهما"(٢٩)،وقال السعدي بعد أن ذكر أنواع التوحيد:"وهذه الأنواع

---

(٢٥) مدارج السالكين(٣/٣٦٦).

(٢٦) الحموية(١٩٦).

(٢٧) الحموية(١٩٩).

(٢٨) مدارج السالكين(١/١١٠).

(٢٩) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية(١/٤٢٠).



هي روح الإيمان ورَوْحُه وأصله وغايته ،فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه،فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات"(٣٠).

ولا يخفى أن مرتبة الإحسان هي أعظم مراتب الدين،وهي على قسمين:

أولهما:الاستحضار،وهو استحضار مشاهدة الله واطلاعه عليه وقربه منه وإحاطته بأمره،وهي مرتبة الإخلاص،لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

وثانيهما:المشاهدة،وهي أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه،فيستنير قلبه بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان(٣١).

ومن عرف الله بأسمائه وصفاته تحصلت له مرتبة الاستحضار،فإن ترقى إلى المعرفة الحق تحصلت له مرتبة المشاهدة،وهي المرتبة التي يوصف الإنسان فيها بالتعبد المطلق بجميع الأسماء والصفات.

قال ابن القيم:" مشهد الإحسان:وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سماواته مستويا على عرشه يتكلم بأمره ونهيه ويدبر أمر الخليقة فيتزل الأمر من عنده ويصعد إليه وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه فيشهد ذلك كله بقلبه،ويشهد أسماءه وصفاته ويشهد قيوما حيا سميعا بصيرا عزيزا حكيما آمرا ناهيا يحب ويبغض ويرضى ويغضب ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم ،بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ،ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الحياء و الإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له ويقطع الوسواس وحديث النفس ويجمع القلب والهم على الله ،فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان ،وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد"(٣٢).

رابعا: العلم بالأسماء والصفات من توحيد المرسلين:

إن العلم بالأسماء والصفات والتعبد لله بها من توحيد المرسلين،قال السعدي في شرح توحيدهم:" يتعرفون معناها ويعقلونه بقلوبهم،ويتعبدون الله تعالى بعلمها واعتقادها ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من

(٣٠) التوضيح والبيان(١٠٨)،وانظر القول السديد في مقاصد التوحيد(٤١).

(٣١) انظر جامع العلوم والحكم(٤٤).

(٣٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه(٣٨ــ٣٩)،وانظر مختصر الفوائد في أحكام المقاصد(١١١ــ١١٢).



الأحوال القلبية والمعارف الربانية فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبة لله وتعظيما له وتقديسا،وأوصاف العز والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها،وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعا فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه،وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته ،ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقا إليه،وتوجب له التأله والتعبد والتقرب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله بظاهره وباطنه بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه"[٣٣].

خامسا: العلم بالأسماء والصفات أصل العلوم:

إن العلم بالأسماء والصفات أصل العلوم والمعارف،وقد شرح ذلك ابن القيم حيث يقول:"إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم ،فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا إما علم بما كونه أو علم بما شرعه ،ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى،وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه،فالأمر كله ومصدره عن أسماء الله الحسنى،وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد"[٣٤].

ويبين ابن القيم أهمية معرفة الأسماء الحسنى والصفات العليا في معرفة مقاصد الشرع الحكيم،فيقول:" ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقراء آثارها في الخلق والأمر رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام ورأى سريان آثارها فيهما وعلم بحسب معرفته ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته فإذا رأى في بعض الأحكام جورا وظلما أو سفها وعبثا ومفسدة أو ما لا يوجب حمدا وثناء فليعلم أنه ليس من أحكامه ولا دينه وأنه بريء منه ورسوله فإنه إنما أمر بالعدل لا بالظلم وبالمصلحة لا بالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه"[٣٥].

ويضرب ابن القيم مثالا يبين أثر معرفة الأسماء والصفات في معرفة مقاصد الشارع وأن لذلك أثرا عظيما في باب الفقه والحكم على المسائل من منظور شرعي، ففي مسألة بطلان التحليل والحيل الربوية يقول:" يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ثم يبيح التوصل إليه بنفسه

---

(٣٣) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين(٢٢١).

(٣٤) بدائع الفوائد(١/١٦٣)وانظر مدارج السالكين(١/٤٤٩).

(٣٥) طريق الهجرتين(٢٢٧ـــ٢٢٨).





بأنواع التحيلات،فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد؛إذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه وصفاته تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي"[٣٦].

سادسا: العلم بالأسماء والصفات طريق الكملة:

إن العلم بالأسماء والصفات والتعبد لله بها طريق الكملة من العباد،ولذا كان ذلك طريق الأنبياء وهم أكمل الخلق وأعلمهم بالله ،ثم على نهجهم سار الصديقون والسابقون،وخطى العارفون المحبون.

قال ابن القيم:"وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله،وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)[الأعراف١٨٠]والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد،وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها "[٣٧]،وقال:"أما الخواص فعمدة إيمانهم محبة تنشأ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماء والصفات"[٣٨]،وقال:" باب الأسماء والصفات الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه وهو باب المحبين حقا الذي لا يدخل منه غيرهم ولا يشبع من معرفته أحد منهم بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقا ومحبة وظمأ"[٣٩].

وإذا علم العبد الصادق ذلك تعلق قلبه بهذا الباب العظيم الذي يوصله إلى باب المحبة ،ويفتح له من العلوم والمعارف أمورا لا تخطر على باله،ولتكن أنت وفقك الله ممن سلك هذا الباب فقد والله قل من سلكه واستفتحه، قال ابن القيم ــ بعد أن ذكر مشهدي الحكمة والأسماء والصفات ــ:" وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحان له من المعارف والعلوم أمورا لا يعبر عنها،وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قل من استفتحه من الناس"[٤٠].

وقال:"أما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال،له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول لا مخالف له فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف، ويكون ذلك قائما بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها ،وهذا سلوك الأكياس

---

(٣٦) التبيان(١٤٥ــ١٤٦).

(٣٧) مدارج السالكين(٤٥٢/١).

(٣٨) طريق الهجريتين(٥٢٧).

(٣٩) طريق الهجرتين(٥٢٠).

(٤٠) انظر مفتاح دار السعادة(٢٨٦/١).



الذين هم خلاصة العالم والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم ،طريق سهل قريب موصل، طريق آمن أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكن يستدعي رسوخا في العلم ومعرفة تامة به وإقداما على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله"[٤١].

سابعا: العلم بالأسماء والصفات طريق السعادة:

إن العلم بالأسماء والصفات والتعبد لله بها قطب السعادة ورحى الفلاح والنجاح،فمن رام السعادة وابتغاها فليأخذ نفسه بأسماء الله وصفاته، فبها والله الأنس كله والأمن كله،وما راحة القلب وسعادته إلا بها،و لم لا وهي تتعلق بمن طب القلوب بيديه،وسعادتها بالوصول إليه وكمال انصباب القلب إليه.

ولذا أشار الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى الاعتناء بها حين قال:(إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة)[٤٢]،وأعلى منازل الإحصاء التعبد،ولذا قال ابن القيم عن إحصائها :"وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاح والفلاح"[٤٣]،وقال :"من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه، ومن أحبه أحب أسماءه وصفاته،وكانت آثر شيء لديه،حياة القلوب في معرفته ومحبته، وكمال الجوارح في التقرب إليه بطاعته والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته"[٤٤].

وقال:" فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه"[٤٥].

ثامنا: العلم بالأسماء والصفات طريق محبة الله:

إن العلم بالأسماء والصفات والتعبد لله بها طريق محبة الله للعبد،وهي عنوان السعادة وطريق النجاة والفوز بالرضوان،قال ابن تيمية:"وثبت في الصحيح أنه بشر الذي كان يقرؤها ويقول:إني لأحبها ؛لأنها صفة الرحمن بأن الله يحبه[٤٦] ،فبين أن الله يحب من يحب ذكر صفاته سبحانه وتعالى،وهذا باب واسع"[٤٧].

---

(٤١) طريق الهجرتين(٣٦٢ـــ٣٦٣).

(٤٢) رواه البخاري(٧٣٩٢)ومسلم(٢٦٧٧).

(٤٣) بدائع الفوائد(١/١٦٤).

(٤٤) عدة الصابرين(٢٨٦).

(٤٥) طريق الهجرتين(٣٦٣).

(٤٦) رواه البخاري(٧٣٧٥)ومسلم(٨١٣):كان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك)، فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها،فقال النبي صلى الله عليه وسلم :(أخبروه أن الله يحبه).

(٤٧) درء تعارض العقل والنقل(٥/٣١٢).



وإنما كان الفضل له لمحبته لسورة الإخلاص التي هي وصف الرحمن ونسبه سبحانه وتعالى،وقد جاء أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك،فترلت هذه السورة مبينة لصفة الرحمن[٤٨]، فمن أحب هذه السورة إنما أحبها لما فيها من صفات الكمال والجلال لله تعالى ،ومن أحب هذه الصفات فقد أحب من اتصف بها سبحانه،فمحبة الصفات موصل إلى محبة الله تعالى.

قال العز بن عبد السلام:"أحب عباد الله تعالى إليه وأكرمهم عليه العارفون بما يستحقه مولاهم من أوصاف الجلال ونعوت الكمال...فهم في رياض معرفته حاضرون،وإلى كمال صفاته ناظرون،إن نظروا إلى جلاله هابوه وفنوا،وإن نظروا إلى جماله أحبوه وظنوا،وإن نظروا إلى شدة نقمته خافوه وأذعنوا،وإن نظروا إلى سعة رحمته رجوه وأنابوا إليه..."[٤٩].

تاسعا: العلم بالأسماء والصفات أعظم روافد الإيمان:

إن معرفة الأسماء والصفات أعظم روافد الإيمان وأجل الموصلات لحلاوته،ولذا كان من تحقق بمعانيها ووعاها بقلبه ووجدانه فإنه يجد لها من التأثيرات المختلفة على قلبه ما يهذب روحه ويسمو بنفسه حتى يصير كأنه في رياض من الجنة[٥٠]،ولذا قال صلى الله عليه وسلم ــ فيما يوجد حلاوة الإيمان ــ(أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)[٥١].

قال السعدي مبينا روافد الإيمان:"منها بل أعظمها معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة والحرص على فهم معانيها والتعبد لله فيها،ثم ذكر حديث:(إن لله تسعة وتسعين اسما) ،ثم قال:"الجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته،ومعرفة الأسماء هي أصل الإيمان،والإيمان يرجع إليها"[٥٢].

والتعرف على الله بالأسماء والصفات من أعظم السبل الموصلة للأنس بالله والمحبة له والتعظيم لشأنه جل وعلا،وهل ذلك إلا العبودية الحق التي قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية:"من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية"[٥٣].

---

(٤٨) انظر جامع الترمذي(٣٣٦٤ــ٣٣٦٥)فتح الباري(٨/٧٣٩)تفسير القرآن العظيم(٤/٦٠٤).

(٤٩)شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال(١٠).

(٥٠) انظر شرح النونية لهراس(٢/٦٤).

(٥١) رواه البخاري(١٦)ومسلم(٤٣).

(٥٢) التوضيح والبيان(١٠٧).

(٥٣) نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين(١/٤٦٤).





ومن تفكر في أسماء الله وصفاته وجد في نفسه من عظمة الله ومحبته ما يوضح له بيقين معنى العبودية بل يكون حينئذ ذلك الوصف هو أحسن الأوصاف إليه وأقربها إلى نفسه،ألا ترى أن الله نادى خليله صلى الله عليه وسلم بذلك الوصف فقال:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)[الإسراء ١]،فوصفه بذلك الوصف في مقام التشريف والتكريم وبيان القرب،وهذا الوصف هو الذي اختاره صلى الله عليه وسلم حينما خير بين أن يكون ملكا رسولا أو عبدا نبيا[٥٤]،وإذا وصل العبد لذلك حق له الفرح:(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)[يونس ٥٨].

وإذا تأمل الموفق ذلك فإنه لا ينثني أن يكون هذا العلم أكبر مقاصده وأعظم مطالبه ،بل يجعله غايته ومقصده،وسلوته وأنسه،وإلا فقد جعل لنفسه من الحرمان نصيبا وافرا.

من يحتاج إلى هذا الموضوع؟.

إن ما سبق بيانه يبين لك أن كل أحد بحاجة إلى العلم بالأسماء والصفات:

فالعالم بحاجة إليه ليهذب نفسه ويزكو بروحه وليسترشد به على الأحكام الشرعية والمقاصد الربانية.

وطالب العلم بحاجة إليه ليهذب أخلاقه و يربي نفسه على نهج العباد العارفين.

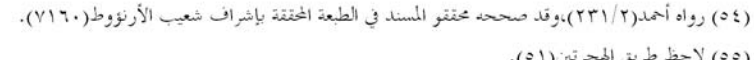
والعامي بحاجة إليه ليوقن بخالقه وليعرف حكمته في الشرع والكون.

أركان التعبد بالأسماء والصفات:

لا بد لكل من توجه نظره إلى التعبد بأي اسم أو صفة من أسماء الله تعالى وصفاته من أمرين مهمين[٥٥]:

الأول: (الإيقان بالاسم على كماله وحسنه،والصفة على تمام الاتصاف بها):

فالمؤمن الحق من يقر بالاسم وما دل عليه من صفة أو أثر،ويقر بذلك على كماله، فالله تعالى له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن أعظم درجاته،ومن أخل بشيء من ذلك حرم من هذا الباب بقدر ما عنده من الإخلال،ومن أنكر الأسماء والصفات فأنى أن تدخل حقيقة الإيمان قلبه،بل دون ذلك خرط القتاد.



(٥٤) رواه أحمد(٢/٢٣١)،وقد صححه محققو المسند في الطبعة المحققة بإشراف شعيب الأرنؤوط(٧١٦٠).

(٥٥) لاحظ طريق الهجرتين(٥١).



وتأمل وفقك الله كلمة الحسنى هل يمكن أن تتم مع التعطيل؟،وهل يمكن معرفة الله تعالى بجماله وكماله إلا بمعرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى وإثباتها له تعالى كما يليق بجلاله،قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:"فمن قال إن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فقوله معلوم البطلان ممتنع وجود ذلك في الأعيان"[٥٦].

قال الدارمي في رده على بشر:"ولن يدخل الإيمان قلب رجل حتى يعلم أن الله لم يزل إلها واحدا بجميع أسمائه وجميع صفاته لم يحدث له منها شيء كما لم تزل وحدانيته"[٥٧].

وقال ابن القيم:"وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه إلى الجنة حرام عليه ريحها،وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة،والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى،ولا معطي لما منع،وبه التوفيق"[٥٨]،وقال في الحجب التي تحجب القلب:" والحجب عشرة حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات وهو أغلظها فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق"[٥٩].

وإن من رام الحق ليقر بأن حقيقة التعبد ــ والذي من ثماره المحبة والإنابة والتوكل ومقام الإحسان ــ ممتنع على المعطل؛إذ كيف تصمد القلوب إلى من ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه،وكيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها ولا يرى مكانها،ولا يُحِب ولا يُحَب،ولا يقوم به فعل مطلقا،ولا يتكلم ولا يُكلَّم،ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء،ولا يقوم به رأفة ولا،ولا له حكمة ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها ،أم كيف تأله القلوب من لا يرضى ولا يغضب ولا يفرح ولا يضحك ،"فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته والسرور والفرح به والشوق إلى لقائه،وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه،فلو رآها أهلا لذلك لمنَّ عليها به وأكرمها به؛إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده،والله أعلم حيث يجعل كرامته ويضع نعمته"[٦٠].

---

(٥٦) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية(٤/١٣٤).

(٥٧) الرد على المريسي(١٣).

(٥٨) التبيان(١٤٦)وانظر الصلاة وحكم تاركها(١٧١).

(٥٩) مدارج السالكين(٣/٢٣٣).

(٦٠)مدارج السالكين(٣/٣٦٧ــ٣٦٨).



وإن من أيقن بهذا الباب و لم يتأثر إيمانه به بالشبه الباطلة والإيرادات المبتدعة فقد وصل إلى درجات البصيرة في الأسماء والصفات،والبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين وبذلك ينتفع بما دعا إليه الشرع من الاعتناء بهذا الباب العظيم(٦١).

ومن أعرض عن الإيمان بهذا الباب وعطل أسماءه وصفاته كان من أعظم الصادين عن معرفة الله وعبادته والقاطعين طريق الوصول إليه،قال ابن القيم:" الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يبغّضون الله إلى خلقه ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون"(٦٢).

الثاني: (أن يعامل كل اسم أو صفة بما يقتضيه ذلك الاسم أو تقتضيه تلك الصفة):

فمثلا:من أسماء الله الأول:فمن أيقن بهذا الاسم فإنه يصرف الأمور إلى الله فيؤمن به ويتوكل عليه ويثق به؛لأنه الأول الذي جاد بالأسباب ،ولا يلتفت بقلبه إلى غيره طرفة عين؛لأنه وإن كان يباشره إلا أنه يعلم كونه سببا وأن الله هو الذي تفضل به وأحسن بإيصاله إليه.والله هو الآخر:فمن أيقن بذلك لن يركن إلى الأسباب؛فإنها تنعدم لا محالة،ولذا سيجعل الله غايته؛ لأنه تعالى نهاية كل شيء،(وأن إلى ربك المنتهى)[النجم ٤٢].

فهذان الاسمان يوجبان الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه،وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدىء بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة،وإليه تنتهي الأسباب والوسائل،فهو أول كل شيء وآخره،وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده.

وهو الظاهر فمن أيقن بذلك علم أن له ربا يقصده وصمدا يصمد إليه في حوائجه وملجأ يلجأ إليه،وأن كل شيء بيده لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه شيء،ملك الملوك بيده وأمر كل شيء نافذ بإرادته، وهو الباطن فمن أيقن بذلك علم قربه منه،وأنه أقرب إليه من كل شيء حتى من نفسه(٦٣).

قال ابن القيم:"لكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها،وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب

---

(٦١) انظر مدارج السالكين(١/ ١٣٩)

(٦٢) الفوائد(١٩٧).

(٦٣) أطال ابن القيم الحديث عن هذه الأسماء في طريق الهجرتين(٤٣ وما بعدها).

تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا ،وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل مالا يرضى الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنا ،ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي موجباتها،وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم "[٦٤].

(الاتصاف بموجب الاسم والصفة)

وإن من التعبد بالأسماء والصفات الاتصاف بموجب الاسم والصفة،قال ابن القيم:" وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته،فهو عليم يحب كل عليم،جواد يحب كل جواد ،وتر يحب الوتر،جميل يحب الجمال،عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله،بر يحب الأبرار ،شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين ،حليم يحب أهل الحلم"[٦٥].

غير أن الاتصاف بموجب أسماء الله تعالى مقيد بشرط،وهو أن بعض أسماء الله تعالى هي كمال في حقه جل وعلا ولكنها نقص وذم في حق المخلوق فهذه لا يجوز الاتصاف بموجبها،ولذا كان الشرط المقيد لإطلاق ما ذكرنا هو ألا يكون الوصف مما يختص به الرب تعالى،كاسم الله الجبار فإنه كمال في حقه نقص في حق العبد فلا يجوز أن يتصف العبد بموجبه،قال ابن القيم:"وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم ونقص كما قال تعالى: (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)[غافر ٣٥]،وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :(وما أنت عليهم بجبار)[ق ٤٥]"[٦٦].

---

(٦٤) مفتاح دار السعادة(٢/٩٠)وقد أطال الحديث عن ذلك بكلام جميل يحسن الرجوع إليه.

(٦٥) مدارج السالكين(١/٤٥٣)،وانظر روضة المحبين(٦٤).

(٦٦) شفاء العليل(١/٣١٢).

مراتب التعبد بالأسماء والصفات:

أما مراتب التعبد فهي درجات بحسب إيقان العبد بالله وخضوعه له وذله بين يديه،وبحسب إيمانه بأسمائه وصفاته وما يفتح له فيها من مشاهد الإيمان ومراسم الإحسان،فمن الناس من يأخذ من ذلك ببصيص نور ،ومن الناس من يأخذ كالشمعة،ومن الناس من يأخذ كالقنديل،ومنهم من هو أعلى من ذلك،ومنهم من يلامس عنان السماء فنوره يشع بين الخافقين،(هم درجات عند الله)[آل عمران ١٦٣]،و(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[الجمعة ٤].

قال العز بن عبد السلام:"وقد يحصل التحديق إلى هذه الصفات من غير تذكر ولا استحضار،والعارفون متفاوتون في كثرة ذلك وقلته،وانقطاعه ومداومته،فهم في رياض المعرفة يتقلبون،ومن نضارة ثمارها يتعجبون،ولا تستمر الأحوال لأحد منهم على الدوام والاتصال لتقلب القلوب وتنقل الأحوال،والغفلات حجب على المعارف مسدلات،إن أسدلت على جميعها نكص العارف إلى طبع البشر،فربما وقعت منه الهفوات والزلات،فإذا انكشف الحجاب عن بعض الصفات،ظهرت آثار تلك الصفة وأينعت أثمارها"[٦٧].

قال ابن القيم:" وإذا شرح الله صدر عبده بنوره الذي يقذفه في قلبه أراه في ضوء ذلك النور حقائق الأسماء والصفات التي تضل فيها معرفة العبد إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هي عليه في نفس الأمر، وأراه في ضوء ذلك النور حقائق الإيمان وحقائق العبودية وما يصححها وما يفسدها ،وتفاوتت معرفة الأسماء والصفات والإيمان والإخلاص وأحكام العبودية بحسب تفاوتهم في هذا النور قال تعالى:(أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)[الأنعام ١٢٢]،وقال:(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به)[الحديد ٢٨]، فيكشف لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى مستويا على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن ،فيشهد بقلبه ربا عظيما قاهرا قادرا أكبر من كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، السماوات السبع قبضة إحدى يديه ،والأرضون السبع قبضة اليد الأخرى، يمسك السماوات على أصبع،والأرضين على أصبع،والجبال على أصبع،والشجر على أصبع،والثرى على أصبع،ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك،فالسماوات السبع في كفه كخردلة في كف العبد يحيط ولا يحاط به،ويحصر خلقه ولا يحصرونه ويدركهم ولا يدركونه،لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا

---

(٦٧) شجرة المعارف والأحوال(٤٣).



صفا واحد ما أحاطوا به سبحانه ،ثم يشهده في علمه فوق كل عليم،وفي قدرته فوق كـــل قـــدير، وفي جوده فوق كل جواد،وفي رحمته فوق كل رحيم،وفي جماله فوق كل جميل حتى لو كان جمال الخلائـــق كلهم على شخص واحد منهم ثم أعطى الخلق كلهم مثل ذلك الجمال لكانت نسبته إلى جمـــال الـــرب سبحانه دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس،ولو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم ثم أعطى كل منهم مثل تلك القوة لكانت نسبتها إلى قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوضـــة إلى حملـــة العرش، ولو كان جودهم على رجل واحد وكل الخلائق على ذلك الجود لكانت نسبته إلى جوده دون نسبة قطرة إلى البحر،وكذلك علم الخلائق إذا نسب إلى علمه كان كنقرة عصفور من البحر،وكـــذلك سائر صفاته كحياته وسمعه وبصره وإرادته ...،فهو أول مشاهد المعرفة ثم يترقى منه إلى مشهد فوقه لا يتم إلا به ،وهو مشهد الإلهية فيشهده سبحانه متجليا في كماله بأمره ونهيه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه وفضله في ثوابه...،وينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال وتتريهه سبحانه عن الـــنقص والمثال ،وأن كل كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به وأولى،وكل نقص وعيب فهو سبحانه مـــتره متعال عنه، وينكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد واليوم الآخر وما أخبر به الرسول عنـــه حـــتى كأنه يشاهده عيانا وكأنه يخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأمره ونهيه ووعده ووعيده إخبار من كأنه قـــد رأى وعاين وشاهد ما أخبر به فمن أراد سبحانه هدايته شرح صدره لهذا فاتسع له وانفـــسح،ومن أراد ضلالته جعل صدره من ذلك في ضيق وحرج لا يجد فيه مسلكا ولا منفذا "[٦٨].

وقال ابن تيمية:"فإذا استقر في القلب وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده وبـــره بـــه وإحسانه إليه على الدوام وأوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب ســـواه،فلا يزال مترقيا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف،هـــذا في بـــاب معرفـــة الأسمـــاء والصفات"[٦٩].

(درجة الكمال في التعبد بالأسماء والصفات)

وأكمل الناس في هذا الباب من تعبد الله بجميع أسمائه وصفاته ونال قصب السبق في عبوديـــة الله تعـــالى بها،وهذه مترلة تحقيق العبودية بالأسماء والصفات،قال ابن القيم:"أكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر كمن يحجبه التعبد باسمـــه

---

(٦٨) شفاء العليل(١/٢٧٨ــ٢٨١).

(٦٩) دقائق التفسير(٥/٦)مجموع الفتاوى(١٦/٤٩ــ٥٠).



القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم،أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع،أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم ،أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء ونحو ذلك"[٧٠].

طرق الوصول إلى التعبد بالأسماء والصفات:

إن للوصل إلى التعبد بالأسماء والصفات طرقا كثيرة،غير أن مجامع هذه الطرق وأصولها أربعة،وهي:

الطريق الأول: (التأمل في الأسماء والصفات،وفهم معانيها والتدبر فيها):

وهذا ما أرشد إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته:"إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة"[٧١].

وإحصاء الأسماء إنما يكون بإحصاء ألفاظها وعددها وتفهم معانيها ومدلولاتها وبالدعاء بها بنوعي الدعاء دعاء المسألة والثناء ودعاء التعبد.قال أبو نعيم الأصبهاني:"الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التعداد ،وإنما هو العمل والتعقل بمعاني الأسماء والإيمان بها"[٧٢].

وما قاله رحمه الله هو لب الإحصاء غير أن الإحصاء شامل لتعداد الأسماء وما يلحق ذلك من الإيمان والعمل،وما يقوم الإنسان بالإيمان والعمل بالأسماء على التحقيق والمشاهدة إلا عبر قنطرة التعداد والعلم بالمعنى،فالعلم بهما وسيلة إلى التعبد،قال العز بن عبد السلام:"فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات"[٧٣].

وقال ابن تيمية:"وإذا كان كذلك فمن كان بماله من الأسماء والصفات أعلم وأعرف كان بالله أعلم وأعرف"[٧٤].

ومعرفة هذه المراتب للإحصاء من الأهمية بمكان،ولذا قال الشيخ سليمان بن عبد الله:"وذكرنا مراتب الإحصاء؛لأن العبد محتاج بل مضطر إلى معرفتها فوق كل ضرورة"[٧٥].

---

(٧٠) مدارج السالكين(١/٤٥٢).

(٧١) رواه البخاري(٧٣٩٢)ومسلم(٢٦٧٧).

(٧٢) فتح الباري(١١/٢٢٦).

(٧٣) شجرة المعارف والأحوال (٧٧).

(٧٤) مجموع الفتاوى(٧/٥٧٤).

(٧٥) تيسير العزيز الحميد(٦٤١)وانظر للحديث عن معنى الإحصاء شأن الدعاء(٢٦)بدائع الفوائد(١/١٦٤)فتح الباري(١١/٢٢٦)معارج القبول(١/١٢٥).

وإن لكل اسم من أسماء الله أسرارا عظيمة ومعاني بديعة يطلع الله ما شاء منها على من شاء من عباده،قال أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري:"في كل اسم من أسماء الله تعالى سر خفي"[٧٦].

(التأمل في اسم الله الجبار)

ولو ضربنا لذلك مثالا: فمن أسماء الله تعالى الجبار،وله معان[٧٧]:

أولا:جبر القوة:وهذا يثمر في قلب العبد الخوف والخشية والذل والخضوع،فإذا راودته نفسه على الجنوح والعصيان تذكر أن الله هو الجبار الذي قهر بجبروته كل جبار من جبابرة الدنيا فأحجم عن العصيان وأذعن للواحد الديان،ومن تأمل ذلك أيضا أثمر في خلقه التواضع لعباد الله وخفض الجناح لهم.

ثانيا:جبر الرحمة:وهذا يثمر في القلب حبا وإقبالا والتفاتا بالقلب إلى الله تعالى،وإذا أصاب العبد كسر اتجه إلى الله بقلبه فإنه جابر كسر قلوب عباده سبحانه.

ثالثا:جبر العلو:وهذا يثمر في القلب تعظيم الله تعالى.

رابعا:جبر الكبر:أي هو المتكبر عن كل سوء ونقص وعن مماثلة أحد،وهذا يوجب على العبد إفراد الله تعالى بالعبادة ،وأن يتعبده سبحانه بالحمد؛لأنه مستحقه،ويثمر أيضا في القلب محبة من له الكمال المطلق سبحانه وتعالى.

وهذه بعض الأمثلة من كلام ابن القيم على التأمل بالأسماء والصفات وما يثمره ذلك على قلب العبد وجوارحه، قال ابن القيم رحمه الله:

(التأمل في صفة العلو):

فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستواءه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجيا له مطرقا واقفا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز ،فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف[٧٨] من الإماتة والإحياء

---

(٧٦) ذيل طبقات الحنابلة(٣/٥٨).

(٧٧) انظر الحق الواضح المبين(٢٥١).

(٧٨) كذا،ولعلها التصرف.



والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسمه نافذة فيها كما يشاء يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ،فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به.

(التأمل في صفة العلم):

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال ،بل أحاط بذلك علمه علما تفصيليا، ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإراداته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء.

(التأمل في صفة السمع):

وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها سواء عنده من أسر القول ومن جهر به، لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر، ولا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوت واحد كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

(التأمل في اسم الله البصير):

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ،ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل ،وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها ،وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء.

(التأمل في صفة القيومية):

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال ،وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس،وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه





وجزاء المسيء إليه،وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ،ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ،لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى، وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو مشهد الربوبية .

(التأمل في اسم الجلالة الله):

وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء ،وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة والمألوه وحده ،وله الحكم وحده فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها،وكل غنى لغيره فقر وضلال،وكل عز بغيره ذل وصغار،وكل تكثر بغيره قلة وفاقة، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره ،فهو الذي انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ،ويستحيل أن يكون معه إله آخر ،فإن الإله على حقيقة هو الغني الصمد ولا حاجة به إلى أحد وقيام كل شيء به وليس قيامه بغيره، ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظم فساد واختل أعظم اختلال كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل فإن استقلالهما ينافي استقلالهما واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الإلهية، ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره لصحة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية،وكذلك كان عباد الأصنام يقرون به وينكرون توحيد الإلهية ويقولون: (أجعل الآلهة إلها واحدا)[ص ٥] مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسماوات والأرض وما بينهما، وأنه المنفرد بملك ذلك كله، فأرسل الله تعالى يذكر بما في فطرهم الإقرار به من توحيده وحده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ،ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله ،فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه ،فيقال الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال الله من أسماء الرحمن قال الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى)[الأعراف ١٨٠] فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد





كلها ،وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق وصار من أغنى العباد"[٧٩].

الطريق الثاني:التأمل في مفعولات الله وآياته الكونية:

وهذا باب عظيم من النظر حث عليه الرب الكريم في قوله سبحانه:(قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)[يونس ١٠١]،(أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء)[الأعراف ١٨٥].

وحث عليه النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله)[٨٠].

قال ابن القيم:"والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان نظر إليها بالبصر الظاهر،فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها،وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات،وليس هو المقصود بالأمر، الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها،ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن،فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته،ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة،ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير،والأمر يترل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فيترل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين،وإعزاز قوم وإذلال آخرين،وإسعاد قوم وشقاوة آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك،وتحويل نعمة من محل إلى محل،وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر ،وإغناء فقير، وشفاء مريض ،وتفريج كرب ،ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم ،وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق ،وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف ،وإغاثة الملهوف ،وإعانة لعاجز ،وانتقام من ظالم ،وكف العدوان ،فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ،ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ،ولا يتبرم



---

(٧٩) طريق الهجرتين(٨٢ـــ٨٥)،وما بين المعكوفين زيادة مني،وانظر لـــ(المنان،وصفة القرب)منه(٥٤،٤٧)وابن القيم قد نثر كلامه في التعبد بالأسماء والصفات في كثير من كتبه فقلما تجد كتابا إلا وفيه إشارة إلى كثير أو قليل في هذا الباب،ومن العلماء الذين اعتنوا بهذا الباب أيضا العز بن عبد السلام فقد أفاض في الحديث عن التعبد بجملة من الصفات التي يرى هو ثبوتها،وعقد لها بابين في كتابه الرائع شجرة المعارف والأحوال (١٧ـــ٤٥)وتحدث عن ذلك بشيء من الإيجاز في كتابه قواعد الأحكام(٢/١٨٠ـــ١٨١)غير أنه ينبغي ملاحظة أمرين:أحدهما أنه يسمي ذلك تخلقا،وقد نقلت في المقدمة كلام ابن القيم حول ذلك وأن الأولى تسميته تعبدا وأولى منه دعاء ،وثانيهما أن العز رحمه الله نهج في كتابه نهج الأشاعرة في إثبات الصفات.

(٨٠) رواه الطبراني في الأوسط(٦٣١٥)وغيره،وحسنه الألباني لشواهده في السلسلة الصحيحة (١٧٨٨)وانظر كشف الخفاء(١٠٠٥).

بإلحاح الملحين ،ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم ،فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته خاشعا لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب،وهو في وطنه وداره ومحل ملكه،وهذا من اعظم آيات الله وعجائب صنعه، فياله من سفر ما أبركه وأروحه واعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب"[٨١].

(التأمل في الكون وما فيه)

ولو تأملت أيها الأخ الحبيب هذا الكون العظيم بما فيه من عجائب مخلوقات الله لعلمت من أنت ولعلمت عظمة الله عز وجل ،فانظر وفقك الله إلى السماء وسعتها وعظيم جرمها وضخامتها،ثم هي ليست سماء واحدة بل سبع سماوات وما بين كل سماء والأخرى مسيرة خمسمئة عام، وكثف كل سماء مسيرة خمسمئة عام[٨٢]،وهذه الأرض انظر إلى سعتها وانبساطها،ثم سألت نفسك بعد ذلك ما هذه السماوات والأرض في ملك الله؟،قال ابن عباس:"ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم"[٨٣]،وفي الحديث: (يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول:أنا الملك أين ملوك الأرض)[٨٤]،ولما قال الحبر اليهودي: (إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول :أنا الملك أنا الملك)،ضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ،ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)[الزمر ٦٧][٨٥].

وما هذه السماوات والأرض في كرسي الرحمن؟،(وسع كرسيه السماوات والأرض)[البقرة ٢٥٥]،والسماوات والأرض لما دعاهما الله عز وجل: (قالتا أتينا طائعين)[فصلت ١١]،و(لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[غافر ٥٧] لأن كثيرا منهم (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)[الروم ٧].ولما قال موسى عليه السلام: (رب أرني أنظر إليك) ،قال الله تعالى : (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني

---

(٨١) مفتاح دار السعادة(١/١٩٩)وانظر الفوائد(٤٤)ولابن القيم كلام رائق جميل في مدارج السالكين(٣/٣٧٠ـ٣٧٢).

(٨٢) جاء هذا في رواية فيها مقال من حديث الأوعال رواها الإمام أحمد(١/٢٠٦)،وفي صحة الحديث عموما خلاف مشهور ليس هذا موضع بسطه.

(٨٣) رواه الطبري(١٠/٢٤/٣٠٢١٢).

(٨٤) رواه البخاري(٤٨١٢)ومسلم(٢٧٨٢).

(٨٥) رواه البخاري(٤٨١١)ومسلم(٢٧٨٦).



فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا)[الأعراف ١٤٣]،قال ابن عباس:"ما تجلى منـــه إلا كقدر الخنصر"،ولما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم الآية قال بيده هكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر،ثم قال : (فساخ الجبل)[٨٦].فهذا الجبل العظيم لم يستقر مع ضخامته أمام قوة الله عز وجـــل فكيف بك أنت؟!.

تأمل سطور الكائنات فإنهـــا ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تشير بإثبات الصفات لربهـــا ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

(التأمل في الملائكة)

ولو تجاوزت هذه المخلوقات المرئية إلى المخلوقات التي أخبر عنها الشرع لرأيت عجبا،فهذا جبريل عليه السلام له ستمئة جناح،الجناح الواحد منها يسد ما بين الأفق،وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم قد سد بعظيم خلقه ما بين السماوات والأرض[٨٧]،وقد روي أنه حمل بجناحه قرى سدوم وفيها مئـــات الآلاف حتى حاذى بهم السماء ثم أكبهم على وجوههم،قال السدي :"لما أصبحوا ـــ يعني قوم لـــوط ـــ نـــزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ السماء الدنيا حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك حين يقول: (والمؤتفكة أهوى)[النجم ٥٣] المنقلبة حين أهوى بها جبريل الأرض فاقتلعها بجناحه فمن لم يمت حين أسقط الأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة"[٨٨].

ومع هذه العظمة فقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (مررت ليلة أسري بي بـــالملأ الأعلـــى وجبريـــل كالحلس البالي من خشية الله)[٨٩].

وفي الحديث : (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنـــه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام)[٩٠].

ومع هذا فإن الملائكة الكرام:(لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون،يسبحون الليـــل والنـــهار لا يفترون)[الأنبياء ١٩ـــ٢٠]،(يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون)[فصلت ٣٨]،وفي الحـــديث:

(٨٦) رواه الترمذي(٣٠٧٤)وصححه ابن القيم في مدارج السالكين(٣/١٠٤)والألباني في صحيح سنن الترمذي(٢٤٥٨).

(٨٧) انظر صحيح البخاري(٤٨٥٦ـــ٤٨٥٨)وصحيح مسلم(١٧٧)ومسند أحمد(١/٤٠٧،٣٩٥).

(٨٨) جامع البيان(٧/٩٦/١٨٤٧٨)وانظر الجامع لأحكام القرآن(٩/٨١)تفسير القرآن العظيم(٢/٤٧١).

(٨٩) رواه الطبراني في الأوسط(٤٦٧٦)،وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١/٨٣) في الأوسط ورجاله رجال الصحيح،وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٢٨٩)والحلس:بكسر الحاء، كل شيء ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج،وقيل ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع.انظر لسان العرب(٣/٢٨٢)القاموس(٦٩٤).

(٩٠) رواه أبو داود(٤٧٢٧)وقال الحافظ في فتح الباري(٨/٦٦٥):" إسناده على شرط الصحيح "،وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٣٩٥٣).

(أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لـو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)(٩١).

وإن من تأمل هذا علم قوة الله وعظمته وجلاله وغناه عن خلقه فله وحده الكبرياء والعظمة،ولا شك أن ذلك يثمر في القلب الخوف من الله ومراقبته في الأوامر والنواهي،كما يفيض على القلب رهبة وخشوعا وخضوعا تزدان به عبادة المرء،وإذا كان هذا هو حال السماوات والأرض والجبال وحال الملائكة مـع قوتهم وعظيم خلقهم فكيف بالعبد الضعيف؟.

الطريق الثالث:التأمل في نعم الله ومنته على العبد:

قال ابن القيم:" فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته سبحانه وتعالى، فإن نعمته على عباده مشهودة لهم يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات،وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعا:(أحبـوا الله لمـا يغذوكم به من نعمه وأحبوني بحب الله)(٩٢)، فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظرا ازداد فيها اعتبارا وعجزا عن ضبط القليل منها فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه،والله سبحانه وتعـالى دعا عباده إليه من هذا الباب"(٩٣).

وإذا تأمل العبد نعم الله عليه أوصله ذلك إلى أن يتعبد بأسماء الله البر والمحسن والكريم ونحوها من الأسماء الدالة على لطف الله وكرمه وبره بعبده،فيتعبد الله بما تقتضيه تلك الأسمـاء مـن الحيـاء والحـب لله والاتصاف بموجب هذه الأسماء الكريمة.

(التأمل في بعض نعم الله على النفس)

ولو نظرت إلى نفسك فتأملت النعم التي حباك الله بها في داخلة نفسك لرأيت عجبا ولأوصلك ذلك إلى تعظيم الخالق جل وعلا:

---

(٩١) رواه الترمذي(٢٣١٢)وقال:" هذا حديث حسن غريب"وابن ماجه(٤١٩٠)،وصححه الألباني في صحيح الترمذي(١٨٨٢)،وفي تحفة الأحوذي (٦/٦٠١):"(أطت السماء) بتشديد الطاء من الأطيط وهو صوت الأقتاب،وأطيط الإبل أصواتها وحنينها على ما في النهاية أي صوتت (وحق) بصيغة المجهول أي ويستحق وينبغي (لها أن تئط) أي تصوت".

(٩٢) رواه الترمذي(٣٧٨٩)وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي(٧٩٢).

(٩٣) طريق الهجرتين(٥١٩ــ٥٢٠).



ـ فالتأمل فيما في نفسك من نظام دقيق وعمل فريد،فهذه أعضاؤك تعمل ليل نهار دون كلل أو ملل ودون زيادة أو نقصان،ولو تغير شيء منها قيد أنملة لأثر ذلك عليك إن ذلك ليدل على الإحكام والإتقان في الصنع ولهو من أعظم البراهين على الحكمة الربانية والعلم التام المحيط.

ـ والتأمل في تلك الفضلة التي تخرج منك وأنت أحوج ما تكون إلى إخراجها ولا يمكنك ولو استنجدت بالثقلين إخراجها لو استعصى خروجها أو إبقائها لو اندفعت لخروجها،إن التأمل في ذلك ليوصل العبد إلى الإيقان بضعفه وذله لخالقه وإلى الإيقان بقوة الله واستغنائه عن غيره.

الطريق الرابع:النظر في الآيات الشرعية والأحكام الربانية:

والقرآن الكريم كتاب الله ،وقد تجلى الله تعالى فيه لعباده بصفاته[٩٤]،فمن تأمل كتاب الله ساقه إلى الله،وعرفه عظيم فضله وكمال صفاته وجمال أفعاله،وهذا الطريق من أعظم الطرق الموصلة إلى التعبد وأكملها،وقد حث على ذلك القرآن الكريم حينما أمر بالتدبر عموما:(أفلا يتدبرون القرآن)[النساء ٨٢]،(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته)[ص ٢٩]،وأشار إلى ذلك على وجه الخصوص حيث كان ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله فيه أكثر من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة،وكانت الآيات المتضمنة لذكر الأسماء والصفات أعظم قدرا من آيات المعاد،ولذا أعظم آية في القرآن هي آية الكرسي المتضمنة لذلك[٩٥].

كما أنه حث على ذلك على جهة الخصوص في قوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)[الأعراف ١٨٠]،قال ابن القيم عن التعبد بالأسماء والصفات:"وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله،وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)[الأعراف ١٨٠]والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد،وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها "[٩٦].

وإن تدبر القرآن وتفهم معانيه واستقاء هذه المعاني العظيمة منه لهو أعظم ما نزل القرآن لأجله،ولهو خير من الاشتغال بغيره من العلوم التي هي أقل منه شأنا وفضلا،بل وقد تكون حاجبة للعبد عن حقائق

(٩٤) انظر الفوائد(٩٩)،وانظر لهذا الطريق منه (٤٤،٢٠٩).

(٩٥) انظر درء تعارض العقل والنقل(٥/٣١٠).

(٩٦) مدارج السالكين(١/٤٥٢).





القرآن كالاشتغال بالوسوسة في مخارج الحروف وتتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز أشبه منها بالبيان[٩٧].

(أمثلة على التأمل في الآيات الشرعية والأحاديث النبوية)

ولك أيها الأخ الكريم أن تتأمل هذه الآيات والأحاديث لترى أثرها في قلبك:

ـــ انظر إلى صبر الله وحلمه وعفوه عن العباد مع كمال علمه وقوته واقتداره في مثل قوله تعالى:(وقالوا اتخذا الرحمن ولدا،لقد جئتم شيئا إدا،تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هـــدا، أن دعوا للرحمن ولدا،وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا،إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الـــرحمن عبدا،لقد أحصاهم وعدهم عدا،وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)[مريم ٨٨ـــ٩٥]،وفي الحديث: (لا أحـــد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يعافيهم ويرزقهم)[٩٨].

ـــ انظر إلى عظمة الله وقيوميته وجماله في قوله صلى الله عليه وسلم:(إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبـــل عمـــل الليـــل ،حجابه النور ـــ وفي رواية النار ـــ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتـــهى إليـــه بـــصره مـــن خلقه)[٩٩].

قال العز بن عبد السلام:"إذا فني صواحب يوسف بن يعقوب بملاحظة جماله،فما الظن بملاحظة جمـــال مقلب القلوب وعلام الغيوب"[١٠٠].

وقال ابن القيم:"إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم أخرج عليهن استغرقت إحساس الناظرات فقطعن أيديهن وما شعرن فكيف بالحال يوم المزيد"[١٠١].

ـــ انظر إلى فضل الله وبره وكرمه وإحسانه وشكره لعمل عبده وإن كان هو سبحانه مسدي الفـــضل بالتوفيق للعمل الصالح في قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كـــل

---

(٩٧) انظر دقائق التفسير(٥/٦ـــ٧) مجموع الفتاوى(١٦/٥٠).

(٩٨) رواه البخاري(٧٣٧٨)ومسلم(٢٨٠٤)وقد أطال ابن القيم في الحديث عن اسم الله الصبور وجعله من جملة الأسماء .انظر عدة الصابرين(٢٧٦).

(٩٩) رواه مسلم(١٧٩)،وانظر كلاما جميلا لابن القيم في الجمال الإلهي في الفوائد(٢٢١)،وقوله: (سبحات وجهه) قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن ابن حسن في الرسائل والمسائل المفيدة(جمع الشيخ سليمان بن سحمان ١٠١): "وأما السبحات فهي نور الذات المقدسة العلية"،ثم قال"وإذا فسرت السبحات بنور وجهه الكريم جازت الاســتعاذة بها؛لأنهـــا وصـــف ذات"،وانظر منه (١١٤).

(١٠٠) شجرة المعارف والأحوال(٤٤).

(١٠١) بدائع الفوائد(٣/٢٣٣).



سيئة كان زلفها وكان بعد ذلك القصاص الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها)[١٠٢].

وفي الصحيحين: (إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالهــا إلى ســبعمئة ضعف ،وكل سيئة تكتب بمثلها)[١٠٣].

ــ انظر إلى علمه وإحاطته بكل شيء في قوله تعالى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)[الأنعام ٥٩]،وقوله تعالى: (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خــردل فــتكن في صــخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير)[لقمان ١٦]

عليــم فلا يخفى عليه من الورى ولو غاب في شبر من الأرض خردل

قال الإمام أحمد:"وهو يعلم ما في السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما،وما تحت الثري،ومــا في قعر البحار،ومنبت كل شجرة وكل زرع وكل نبات،ومسقط كل ورقة وعدد ذلك،وعــدد الحــصى والرمل والتراب،ومثاقيل الجبال ،وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم،ويعلم كل شيء لا يخفــى عليه من ذلك شيء،وهو على العرش فوق السماء السابعة)[١٠٤].

وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام قال صلى الله عليه وسلم: (وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر :ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هــذا العصفور من البحر)[١٠٥].

ومن تمام علمه وإحاطته أن حوى سمعه كل شيء،قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها وما أسمع ما تقول فأنزل الله: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[المجادلة ١]"[١٠٦].

ومنه أن حوى بصره كل شيء،فلا يخفى عليه شيء:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الألــيل
ويرى نياط عروقها في مخهــــا والمخ في تلك العظام النحل

---

(١٠٢) ذكره البخاري معلقا(٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه،ووصله أبو ذر الهروي في روايته للصحيح،ووصله غيره،انظر فتح الباري(١/٩٨ــ٩٩)،وقد تحدث ابن القيم عن اسم الله الشكور بكلام جميل في عدة الصابرين(٢٨٠ــ٢٨٣).

(١٠٣) البخاري(٤٢)ومسلم(١٢٩)من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠٤) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة(١/٢٨٤)نقلا عن صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة للسقاف(١٨٥ــ١٨٦).

(١٠٥) رواه البخاري(١٢٢)ومسلم(٢٣٨٠).

(١٠٦) هذا لفظ ابن ماجه(١٨٨)وعلقه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب(٩)مجزوما به،ورواه أحمد(٦/٤٦)والنسائي(٣٤٦٠)وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه(١٥٥).

(أمثلة على التأمل في الأحكام الشرعية)

أما الأحكام الشرعية فإن التأمل فيها من أعظم ما يعين الناظر على إدراك معاني الأسماء والصفات والتعبد لله تعالى بها،وهذا ميدان واسع،وبستان قد امتلأ بأطايب الثمر،ولذا لا يدرك له قرار،ولا يمكن أن يحاط بسياج،بل هو فتوحات إلهية لمن بصره الله بدينه،يفهمها الله من يشاء من عباده،غير أن مما يفتح لك الطريق تكرار النظر مع التسليم التام،وهاك ـــ وفقك الله ـــ شذرات تكفي اللبيب لفهم المراد،فمن ذلك:

ـــ أن من تأمل الصلاة،وما فيها من المعاني العظيمة كتعويد النفس البشرية على الخضوع والانقياد، وملاحظة جلال الله وعظمته، وانشرح الصدر وطمأنينته بقربه إلى الله،وما فيها عند أدائها جماعة من تحقيق الأخوة والتقارب بين المؤمنين ،وتوثيق المساواة وعدم التمايز إلا بالتقوى، فإن ذلك يوصله إلى حكمة الله وكمال شرعه.

ـــ ومن تأمل ما شرعه الله تعالى في الوضوء من غسل أعضاء البدن الظاهرة التي هي بحاجة للنظافة لظهورها وانكشافها،وعدم ارتباط الوضوء بالأعضاء الباطنة التي يشق كشفها ويعسر غسلها في كل مرة،وتأمل الاقتصار على مسح الرأس دون غسله لما في ذلك من المشقة الظاهرة فإنه يتوصل إلى رحمة الله بعباده ولطفه بهم وحكمته الظاهرة في شرعه.

هذا من حيث المحسوس،وأما من حيث المعنى فهذه الأعضاء هي آلات الأفعال التي يباشر بها العبد ما يريد فعله ،وبها يعصى الله سبحانه ويطاع،فاليد تبطش،والرجل تمشي،والعين تنظر ، والأذن تسمع، واللسان يتكلم، فكان في غسل هذه الأعضاء امتثالا لأمر الله وإقامة لعبوديته ما يقتضي إزالة ما لحقها من درن المعصية ووسخها[١٠٧].

وفي ذلك تنبيه وربط بين الظاهر والباطن.

ـــ وهكذا إذا تأمل الزكاة،وما فيها من تعويد النفس على الامتثال والانقياد والبذل والعطاء،وتطهير النفس من عبودية المال،وتحقيق أواصر التضامن والتآلف والتراحم بين المؤمنين،فإنه يصل إلى عدل الله وحكمته ورحمته بخلقه أن شرع لهم ما يكفل لهم مصالحهم ويقيم لهم دينهم ودنياهم.

(١٠٧) انظر إعلام الموقعين(٢/٥٨ـــ٥٩)،وهذا الكتاب البديع مليء بهذا النوع من التأمل.

ـــ وإذا تأملت المؤمنة ما تعبدها الله به من ستر بدنها بالحجاب الساتر لزينتها،وما فيه من حفظ عرضها وعفافها وإبقاء حيائها وقطع الأطماع والخواطر الشيطانية المحيطة بها،وحتى لا تكون إناء لكل والغ،أيقنت أن ذلك من رحمة الله بها وإحسانه إليها.

أخي الحبيب:"وهذا باب واسع قد فتح لك فادخل منه يطلعك على رياض من المعرفة مونقة مات من فاته بحسرتها،وبالله التوفيق"(١٠٨).

آثار التعبد بالأسماء والصفات:

إن للتعبد بالأسماء والصفات آثارا كثيرة على قلب العبد وعمله،قال العز بن عبد السلام:"اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة،ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالا عليًّة،وأقوالا سنية،وأفعالا رضية،ومراتب دنيوية،ودرجات أخروية،فمثل معرفة الذات والصفات كشجرة طيبة أصلها ـــ وهو معرفة الذات ـــ ثابت بالحجة والبرهان،وفرعها ـــ وهو معرفة الصفات ـــ في السماء مجدا وشرفا(تؤتي أكلها كل حين)من الأحوال والأقوال والأعمال(بإذن ربها)[إبراهيم ٢٤ـــ٢٥]وهو خالقها إذ لا يحصل شيء من ثمارها إلا بإذنه وتوفيقه،منبت هذه الشجرة القلب الذي إن صلح بالمعرفة والأحوال صلح الجسد كله"(١٠٩).

وهذه إشارة موجزة إلى بعض تلك الآثار؛إذ تقصي تلك الآثار أمر في غاية العسر،ويجزئ منها ما يبلغ القصد:

أولا:محبة الله.

من تأمل أسماء الله وصفاته وتعلق قلبه بها طرحه ذلك على باب المحبة،وفتح له من المعارف والعلوم أمورا لا يعبر عنها(١١٠)، وإن من عرف الله أورثه ذلك المحبة له سبحانه وتعالى،قال ابن الجوزي:"فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة،ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة لعل ذلك يورث المحبة...فذلك الغنى الأكبر،ووافقراه"(١١١).

---

(١٠٨) روضة المحبين(٦٤).

(١٠٩) شجرة المعارف والأحوال (١٤ـــ١٥).

(١١٠) انظر مفتاح دار السعادة(١/٢٨٦).

(١١١) صيد الخاطر(٧٠).



ومراده أن من عرف الله أحبه، ومن أحب الله أحبه الله،وذلك والله هو الفوز العظيم والجنة والنعيم،والمحبة هي المنزلة التي "فيها تنافس المتنافسون،وإليها شخص العاملون وإلى عَلَمها شمر السابقون،وعليها تفانى المحبون وبروح نسيمها تروح العابدون ،فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون،وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات،والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات،والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام،وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال،والتي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه"(١١٢).

(حب الله هو الفطرة)

وحب الله هو فطرة القلب التي فطر عليها،قال ابن تيمية:" والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة،فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه،كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)، ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه: اقرأوا إن شئتم: (فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[الروم ٣٠]أخرجه البخاري ومسلم،فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له عابدا له وحده"(١١٣).

ومن سلك طريق التأمل في الأسماء والصفات ولاحظ نعم الله عليه كيف لا يكون حب الله تعالى أعظم شيء لديه،قال أبو سليمان الواسطي:"ذكر النعم يورث المحبة"(١١٤)،وقال ابن القيم:" فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصا وأبعدها من كل خير،فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه ،وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده، فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانا منه سبحانه وتعالى، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه وتعالى،وهو الذي لا يحد كماله ولا يوصف جلاله وجماله،ولا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه وإذا كان الكمال محبوبا لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته؛إذ لا شيء أكمل منه، وكل اسم من أسمائه وصفة من

---

(١١٢) مدارج السالكين(٣/٦ـــ٧).

(١١٣) مجموع الفتاوى(١٠/١٣٤ـــ١٣٥)والحديث في البخاري (١٣٥٨)ومسلم(٢٦٥٨).

(١١٤) المحبة لله سبحانه لإبراهيم بن الجنيد(٢٤).





صفاته وأفعاله دالة عليها ،فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وعلى كل ما أمر؛إذ ليس في أفعاله عبث ولا في أوامره سفه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه ،وكلامه كله صدق وعدل ،وجزاؤه كله فضل وعدل، فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته ،وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لـــديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع"(١١٥).

(سرور القلب بمحبة الله)

وإذا شمر العبد إلى تلك المنزلة ورام الوصول إليها وعرف الله بأسمائه وصفاته التفت القلب إلى الله وخلى عن كل ما عداه فـــ "لم يكن شيء أحب إليه منه،ولم تبق له رغبة فيما سواه إلا فيما يقربه إليه ويعينـــه على سفره إليه"(١١٦).

قال يحي بن أبي كثير:"نظرنا فلم نجد شيئا يتلذذ به المتلذذون أفضل من حب الله تعالى وطلب مرضاته".

فكان لسان الحال يقول:

كل محبوب سوى الله سرف وهموم وغمـــــــوم وأسف
كل محبوب فمنه خلـــــف ما خلا الرحمن ما منه خلف(١١٧)

وقال ابن تيمية: "وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه،ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه،وهذا حقيقة لا إله إلا الله"(١١٨).

(محبة الله باعث التوحيد والطاعة)

ولذا كانت محبة الله مقتضية لعدم التشريك بينه وبين غيره فهي باعث التوحيد،ألا ترى أن القلب له وجه واحد: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)[الأحزاب ٤]،فإذا مال إلى جهة لم يمل إلى غيرهـــا،وليس لأحد قلبان يوحد بأحدهما ويشرك بالآخر(١١٩).

---

(١١٥) طريق الهجرتين(٥٢٠ــ٥٢١).

(١١٦) روضة المحبين(٤٠٦).

(١١٧) المحبة لله سبحانه لإبراهيم بن الجنيد(١٠١،٤٤).

(١١٨) مجموع الفتاوى(٣٢/٢٨).

(١١٩) لاحظ روضة المحبين(٢٩٥).





قال صديق حسن:"محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تبعث الجوارح إلا إلى مراضي الرب،وصارت النفس حينئذ مطمئنة بإرادة مولاها عن مرادها وهواها،يا هذا اعبد الله لمراده منك لا لمرادك منه"،وقال:"من امتلأ قلبه من محبة الله لم يكن فيه فراغ لشيء من إرادة النفس والهوى"[١٢٠].

فإلى من ابتلي بهواه حتى ألم به من جوانبه وأعياه هذا هو الدواء لكل داء والبلسم للشفاء،تأمل في أسماء الخالق العظيم وصفاته لتتلمس محبته وما يقربك إليه.

وإذا أردت كمال العبودية فاعلم أنه تابع لكمال المحبة ،وذلك تابع لكمال المحبوب في نفسه،ولما أن كان الله تعالى له الكمال المطلق من كل وجه بحيث لا يعتريه توهم النقص فإن القلوب السليمة والفطر المستقيمة والعقول الحكيمة لا تلتفت إلا إليه ولا تريد أحدا سواه ولا تقبل بحبها إلا إليه سبحانه ،وحينذاك فلا تقبل إلا لما تقتضيه تلك المحبة من عبوديته وطاعته واتباع مرضاته واستفراغ الجهد في التعبد له والإنابة إليه.

قال ابن القيم:"وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها حتى لو فرض تجرده عن الأمر والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع واستخلص القلب للمعبود الحق"[١٢١].

وإياك أن يخلو قلبك من الحب لله تعالى أو أن تملئه من محبة غيره فإن الله تعالى يغار على قلب عبده أن يكون معرضا عن حبه،فالله تعالى خلقك لنفسه واختارك من بين خلقه،ولتعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبده خيرا سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء[١٢٢].

وبعد هذا الهج بقولك :اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك[١٢٣]،فقد كان هذا من دعاء سيد المحبين صلى الله عليه وسلم،فأكثر منه لعل الله تعالى أن يفتح لك الباب،فإن من أكثر الطرق ولج بإذن الله تعالى.

ثانيا: الذل والتعظيم.

من تحقق بمعاني الأسماء والصفات شهد قلبه عظمة الله تعالى فأفاض على قلبه الذل والانكسار بين يدي العزيز الجبار.

---

(١٢٠) الدين الخالص(١/١٦٧).

(١٢١) مفتاح دار السعادة(٢/٨٨ــ٨٩).

(١٢٢) انظر روضة المحبين(٣١٠).

(١٢٣) رواه الترمذي (٣٢٣٥)وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(٢٥٨٢).





(سجود القلب)

ولا شك أن تمام العبودية لا يتم إلا بتمام الذل والانقياد لله،وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا وافتقارا وخضوعا بحيث يحصل للقلب انكسار خاص لا يشبهه شيء فهو يرى حينئذ أنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من خالقه وربه ومولاه ،وحينئذ يستكثر القليل من الخير على نفسه كأنه لا يستحقه، ويستكثر قليل معاصيه لعظمة الله تعالى في قلبه،وذلك هو سجود القلب،سئل بعض العارفين أيسجد القلب؟قال نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء.

ومن سجد هذه السجدة سجدت معه جميع جوارحه،وعنا الوجه للحي القيوم،ووضع خده على عتبة العبودية التي يقول عنها ابن تيمية:"من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية".

حكي عن بعض العارفين أنه قال:"دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا ورأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق،فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه"[١٢٤].

وإذا تأمل العبد وشهد بقلبه" الرب تبارك وتعالى مستويا على عرشه متكلما بأمره ونهيه،بصيرا بحركات العالم علويه وسفليه وأشخاصه وذواته،سميعا لأصواتهم، رقيبا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفا بصفات الكمال ،منعوتا بنعوت الجلال، منزها عن العيوب والنقائص والمثال ،هو كما وصف نفسه في كتابه وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت ،قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ،سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات"[١٢٥].

وإذا تأمل العبد ذلك ألا يدعوه إلى تعظيم الخالق العظيم،فلا يستصغر في حقه معصية قط مهما صغرت،ولا يستعظم في حقه طاعة قط مهما عظمت.

---

(١٢٤) لاحظ مدارج السالكين(١/٤٦١ـــ٤٦٤)مفتاح دار السعادة(١/٢٨٩)وقد تكلم ابن القيم عن الذل بكلام رائع،وقسمه إلى قسمين:ذل المحبة،وذل المعصية.

(١٢٥) مدارج السالكين(١/١٤٠).





قال القرافي في سر تحريم العجب:"إنه سوء أدب على الله تعالى،فإن العبد لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده،بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده لا سيما عظمة الله تعالى،ولذلك قال الله تعالى:(وما قدروا الله حق قدره)[الزمر ٦٧] أي ما عظموه حق تعظيمه"[١٢٦].

فانظر وفقك الله كيف يثمر التأمل في الأسماء والصفات والتعبد بها من معرفة عظمة الله تعالى،وما يثمره ذلك من الأدب مع الله والذل بين يديه واحتقار كل عمل يتقرب به إليه إذ هو قليل في حق عظمته تعالى،وما يثمره ذلك من الخوف منه والبعد عن معاصيه؛إذ كل عظيم يخشى من مخالفة أمره والوقوع في نهيه فكيف بأعظم عظيم جل وعلا.

ثالثا:الخشية والهيبة.

قال ابن القيم:"كلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه،كما قال الله تعالى:(إنما يخشى الله من عباده العلماء)[فاطر ٢٨] أي العلماء به،وقال النبي صلى الله عليه وسلم :(أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية)[١٢٧]"[١٢٨].

وفي قول تعالى :(إنما يخشى الله من عباده العلماء) يقول البحر ابن عباس في معنى الآية:"إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني"[١٢٩].

وقال ابن كثير:"إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر"[١٣٠].

وكيف لا يخشع القلب ويهاب إذا امتلأ بالحب والتعظيم والمعرفة بالخالق العظيم،فإن من عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة،وهابه كل شيء،وذهب عنه خوف المخلوقين،وأنس بالله وحده[١٣١].

(١٢٦) الفروق(٤/٢٢٧).

(١٢٧) الحديث في البخاري(٦١٠١)ومسلم(٢٣٥٦) بلفظ: (إني لأعلمهم بالله،وأشدهم له خشية)،وانظر فتح الباري(١/٧٠)كشف الخفاء(٦٠٧).

(١٢٨) روضة المحبين(٤٠٦).

(١٢٩) زاد المسير(٦/٤٨٦).

(١٣٠) تفسير القرآن العظيم(٣/٥٦١).

(١٣١) لاحظ روضة المحبين(٤٠٦).





رابعا:اليقين والسكينة والطمأنينة.

من عبد الله بأسمائه وصفاته وتحقق من معرفة خالقه جل وعلا ،وعظمه حق تعظيمه فإنه ولا شك يــصل إلى درجة اليقين.

قال ابن القيم:"فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته ونعوت كماله وتوحيده"[١٣٢].

وباليقين مع الصبر تنال الإمامة في الدين،قال تعالى:(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكــانوا بآياتنا يوقنون)[السجدة ٢٤].

وتلك المترلة العالية الرفيعة هي روح أعمال القلوب التي هــي أرواح أعمــال الجوارح،وهــو حقيقــة الصديقية، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وغــم وامتلأ محبة لله وخوفا منه ورضى به وشكرا له وتوكلا عليه وإنابة إليه،قال أبو بكر الدقاق:"اليقين ملاك القلب وبه كمال الإيمان،وباليقين عرف الله،وبالعقل عقل عن الله".

وإذا تيقن القلب نزلت السكينة،وهي الطمأنينة والسكون الذي يترل في القلب عند اشــتداد المخــاوف والبلاء،فيزداد ذلك القلب إيمانا وثباتا،ويكسو الجوارح خشوعا ووقارا،ويضفي على اللــسان حكمــة وصوابا[١٣٣].

خامسا:الرضا.

والرضا من ثمرات المعرفة بالله،فمن عرف الله بعدله وحلمه وحكمته ولطفه أثمر ذلك في قلبه الرضا بحكم الله وقدره في شرعه وكونه فلا يعترض على أمره ونهيه ولا على قضائه وقدره،بل تراه:"قــد يجــري في ضمن القضاء مرارات يجد بعض طعمها الراضي ،أما العارف فتقل عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة،فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة صارت مرارة الأقدار حلاوة كما قال القائل:

عذابــــه فيك عذب	وبعده فيك قــــرب
وأنت عندي كروحي	بل أنت منــها أحب
حسبي من الحــب أني	لما تحــــب أُحب "[١٣٤].

وقد كان من سؤال الحبيب صلى الله عليه وسلم: (أسألك الرضا بعد القضاء)[١٣٥].

---

(١٣٢) مدارج السالكين(٢/٤١٩ـــ٤٢٠)وانظر لليقين منه(١/٤١٣ وما بعدها).

(١٣٣) انظر مدارج السالكين(٢/٥٢٥ـــ٥٢٧).

(١٣٤) صيد الخاطر(٦٩).

(١٣٥) رواه بهذا اللفظ النسائي(١٣٠٥)وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي(١٢٣٧).





وإنما يرضى المؤمن العارف بأسماء الله وصفاته بحكم الله وقضائه ؛لأنه يعلم أن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه،وأنه تعالى أعلم بمصلحته من نفسه،وأرحم به من نفسه،وأبر به من نفسه،ولذا تراه يرضى ويسلم،بل إنه يرى أن هذه الأحكام القدرية الكونية أو الشرعية إنما هي رحمة وحكمة،وحينئذ لا تراه يعترض على شيء منها،بل لسان حاله:رضيت بالله ربا،وبالإسلام دينا،وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا،وذلك والله محض الإيمان.

سادسا:التوكل.

إن من أجل ما يثمره التعبد بالأسماء والصفات أن يعتمد القلب على الله ويخلص في تفويض أمره إليه،وذلك حقيقة التوكل على الله.

والتوكل من أعظم العبادات تعلقا بالأسماء والصفات،ذلك أن مبناه على أصلين عظيمين:

الأول:علم القلب،وهو يقينه بعلم الله وكفايته وكمال قيامه بشأن خلقه،فهو القيوم سبحانه الذي كفى عباده شئونهم فبه يقومون وله يصمدون.

والثاني:عمل القلب،وهو سكونه إلى العظيم الفعال لما يريد وطمأنينته إليه وتفويض أمره إليه ورضاه وتسليمه بتصرفه وفعله؛إذ كل شيء يمضي ويكون فبحكمه وحكمته وقدره وعلمه، لا ينفذ شيء في الأرض و لا في السماء عن قدرته ،فله الحكم كله ،وإليه يرجع الأمر كله[١٣٦].

ومتى ما أخلص القلب ذلك لله علما وعملا كان من سابقي المتوكلين وصادقي المفوضين والمستسلمين،وإنه والله لغاية الأنس والعز أن يعتمد الإنسان في جميع أمره وشأنه على الله تعالى.

ولما أن كان هذان الأمران إنما ينبنيان على العلم بهذا الباب العظيم باب الأسماء والصفات قال بعض العلماء مفسرا التوكل بأنه المعرفة بالله،وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد بالله تعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا وتعبده بها وعلمه بقدرة الله وكفايته وتمام علمه وقيوميته وصدور الأمور عن مشيئته يصح له التوكل ويتم له ويتحقق،قال ابن القيم:"كلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى"،ولذا قال ابن تيمية:" لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات"[١٣٧].

---

(١٣٦) انظر طريق الهجرتين(٤٢٦).

(١٣٧) مدارج السالكين(٢/١٢٣)وانظر طريق الهجرتين(٤٢٣).



سابعا: الدعاء.

إن من تأمل شيئا من أسماء الله وصفاته فإنها بلا شك ستقوده إلى أن يتضرع إلى الله بالدعاء ويبتهل إليه بالرجاء،فمن تأمل قرب الله تعالى من عبده المؤمن،وأن الله تعالى هو القريب المجيب والبر الرحيم والمحسن الكريم فإن ذلك سيفتح له باب الرجاء وإحسان الظن بالله وسيدفعه إلى الاجتهاد في الدعاء والتقرب إلى الله به.

بل إن من تأمل وتعبد بالأسماء والصفات لا يقتصر على مجرد الدعاء،بل سيفيض عليه ذلك الأمر حضور القلب وجمعيته بكليته على الله تعالى فيرفع يديه ملحا على الله بالدعاء والسؤال والطلب والرجاء.

وإنما كان الدعاء من أجل ثمرات العلم بالأسماء والصفات،وكان هو سلاح المؤمن، وميدان العارف، ونجوى المحب، وسلم الطالب ،وقرة عين المشتاق ،وملجأ المظلوم لما فيه من المعاني الإلهية العظيمة،ولذا قال ابن عقيل مبينا شيئا من هذه المعاني:"قد ندب الله تعالى إلى الدعاء،وفي ذلك معان:

أحدها:الوجود،فإن من ليس بموجود لا يدعى.

الثاني:الغنى،فإن الفقير لا يدعى.

الثالث:السمع،فإن الأصم لا يدعى.

الرابع:الكرم،فإن البخيل لا يدعى.

الخامس:الرحمة،فإن القاسي لا يدعى.

السادس:القدرة،فإن العاجز لا يدعى"[١٣٨].

ثامنا: الإخلاص.

إن إدراك معاني الأسماء والصفات على التحقيق يحمل العبد على إفراد الله بالقصد والابتعاد عن صرف شيء من العبادة لغيره تعالى،ولذا كان من أعظم ما يخلّص العبد من دنس الرياء ملاحظة أسماء الله وصفاته،فمن لاحظ من أسماء الله الغني دفعه ذلك إلى الإخلاص لغنى الله تعالى عن عمله وفقره هو إلى الله عز وجل(قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري

---

(١٣٨) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز(٦٧٨).





تركته وشركه)[١٣٩] ،ومن تأمل اسم الله العليم فإنه يعلم أن ما أخفاه عن أعين الناس من ملاحظة الخلق لا يخفى على الله لعلمه التام بكل شيء،ومن تأمل اسم الله الحفيظ حمله ذلك على ترك الرياء ؛لأن كل ما يفعله العبد محفوظ عليه سيوافى به يوم القيامة.

وإذا صنع ذلك كان عمله كله لله،فحبه لله،وبغضه لله،وقوله لله،ولحظه لله،وعطاؤه لله،ومنعه لله،فلا يريد من الناس جزاء أو شكورا،ولسان حاله:(إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)[الإنسان ٩].

وإن تقصير العبد في إخلاصه ووقوعه في الرياء أو قصد غير الله إنما هو بسبب جهله بأسماء الله وصفاته،ولذا قال ابن رجب:"ما تظاهر المرائي إلى الخلق بعمله إلا بجهله بعظمة الخالق"[١٤٠].

ذلك أن من امتلأ قلبه بعظمة الله فإنه يستصغر كل من سواه فلا يرجو منه قربا بعمله أو رزقا بقوله ،و لم يتعلق بغير الله،والله تعالى له الأمر كله، فلا يكون في الكون شيء إلا بأمره وعلمه.

تاسعا:التلذذ بالعبادة.

إن من أعظم المنح الربانية منحة التلذذ بالعبادة،فإذا قام العبد بالعبادة وجد لها من اللذة كما يجد المتذوق طعم الحلاوة في فمه ووجد في قلبه من الأنس والانشراح والسعادة ما لا يجده في وقت آخر،وحينئذ تكون العبادة راحة نفسه وطرب قلبه فيكون لسان حاله أرحنا بالعبادة يا بلال،كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الصلاة: (قم يا بلال فأرحنا بالصلاة)[١٤١]، فتكون الصلاة لما فيها من القرب لله والمناجاة له والتلذذ بكلامه والتذلل له والتعبد بأسمائه قرة العين وسلوة الفؤاد،ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[١٤٢].

قال ابن تيمية:"فان اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب،وقال آخر: لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طربا،وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة،ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أرحنا بالصلاة يا بلال)،ولا يقول أرحنا منها كما

---

(١٣٩) رواه مسلم(٢٩٨٥).

(١٤٠) تحقيق كلمة الإخلاص(ضمن مجموعة رسائل له ،ت:العزازي:٥٣).

(١٤١) رواه أبو داود(٤٩٨٦) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٤١٧٢).

(١٤٢) رواه النسائي(٣٩٤٠)وأحمد(١٢٨/٣)وصححه ابن حجر في فتح الباري(١١/٣،٣٤٥/١٥)وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي(٣٦٨١)..



يقوله من تثقل عليه الصلاة كما قال تعالى: (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)[البقرة ٤٥]،والخشوع: الخضوع لله تعالى والسكون والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح"[١٤٣].

(خفة العبادة بسبب لذتها)

وبتحصيل هذه اللذة يخف ثقل العبادة على القلب،بل قد تزول تلك المشقة فتكون العبادة بردا وسلاما على القلب،قال الشاطبي:" والضرب الثاني شأنه أن لا يدخل عليه ذلك الملل ولا الكسل لوازع هو أشد من المشقة أو حاد يسهل به الصعب، أو لما له في العمل من المحبة ولما حصل له فيه من اللذة حتى خف عليه ما ثقل على غيره ،وصارت تلك المشقة في حقه غير مشقة بل يزيده كثرة العمل وكثرة العناء فيه نورا وراحة أو يحفظ عن تأثير ذلك المشوش في العمل بالنسبة إليه أو إلى غيره كما جاء في الحديث: (أرحنا بها يا بلال)"[١٤٤].

(تأمل الأسماء والصفات طريق للذة العبادة)

وإذا تبين ذلك فإن من أعظم ما يحصل به لذة العبادة هو تأمل الأسماء والصفات وتعبد الله بها ومراعاتها في كل عبادة يأتي بها العبد أو يتركها،فإذا تصدق العبد بالقليل مستشعرا أن الله شكور لا يضيع عمله بل يبارك له فيه ولو كان قليلا كان ذلك مدخلا على قلبه الفرح والسرور بربه ووجد في قلبه حلاوة عظيمة لعمله.

ومن صلى لله تعالى متذكرا حينما قام لله صافا قدميه قيومية الله تعالى وأن الله قائم بذاته وعباده لا يقومون إلا به سبحانه وتعالى،ثم إذا كبر ورفع يديه استشعر أن الله أكبر من كل شيء،وشاهد كبرياء الله وعظمته وجلاله،ثم إذا قرأ دعاء الاستفتاح استشعر ما فيه من تنزيه الرب عن كل نقص،وإذا استعاذ وبسمل التجأ بقلبه إلى الركن الركين وتبرأ من كل حول واعتصم بالله من عدوه واستعان به لا بغيره،ثم إذا قرأ الفاتحة استشعر ما فيها من استحقاق الله لكل المحامد وألوهيته وربوبيته ورحمته بخلقه وملكه لكل شيء ،واستحضر أنه يناجي ربه وأن ربه يجيبه على مناجاته كما في الصحيح: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) ،قال الله تعالى:

---

(١٤٣) مجموع الفتاوى(٣١/٢٨)وهي رسالة يتحدث فيها عن نعم الله عليه وهو في السجن.

(١٤٤) الموافقات(٢/٢٤٠)وحديثه عن أضرب الناس في تأثرهم من خوضهم في العمل الشاق،وانظر كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة(مع مجموعة رسائل لابن رجب ت:عادل العزازي ١٠٨).

حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم)، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: (مالك يوم الدين)، قال:مجدني عبدي، فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين)، قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ،فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم ،صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ،قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"(١٤٥).

ثم تذكر عظمة الله وعلوه،وتذكر خضوعه وتذلله بين يدي ربه بركوعه وسجوده وانكساره ،وتأمل ذلك وهو يقول :سبحان ربي العظيم،سبحان ربي الأعلى،إذا صنع ذلك في صلاته كيف لا يصلي صلاة مودع،وكيف لا يتلذذ بصلاته وعبادته(١٤٦).

قال ابن تيمية:" ويستحضر أنه مناج لله تعالى كأنه يراه،فإن المصلى إذا كان قائما فإنما يناجى ربه،والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ثم كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد،وهذا يكون بحسب قوة الإيمان،والأسباب المقوية للإيمان كثيرة، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (حبب إلى من دنياكم النساء والطيب،وجعلت قرة عيني في الصلاة)،وفي حديث آخر أنه قال: (أرحنا يا بلال بالصلاة)،ولم يقل أرحنا منها...،وهذا باب واسع،فإن ما في القلب من معرفة الله ومحبته وخشيته وإخلاص الدين له وخوفه ورجائه والتصديق بأخباره وغير ذلك مما يتباين الناس فيه ويتفاضلون تفاضلا عظيما،ويقوي ذلك كلما ازداد العبد تدبرا للقرآن وفهما ومعرفة بأسماء الله وصفاته وعظمته وتفقره إليه في عبادته واشتغاله به بحيث يجد اضطراره إلى أن يكون تعالى معبوده ومستغاثه أعظم من اضطراره إلى الأكل والشرب، فإنه لا صلاح له إلا بأن يكون الله هو معبوده الذي يطمئن إليه ويأنس به ويلتذ بذكره ويستريح به، ولا حصول لهذا إلا بإعانة الله"(١٤٧).

وما سبق هو جنس من العبادة،وكل عبادة يقدم عليها العبد مستشعرا هذه المعاني، وقد امتلأ قلبه بالحب للخالق العظيم فإنه ولا بد يحصل لذتها والأنس بها،وفي الحديث: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان:أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ،وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ،وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)(١٤٨).

---

(١٤٥) رواه مسلم(٣٩٥).

(١٤٦) انظر كتاب الصلاة لابن القيم(١٧١ وما بعدها).

(١٤٧) مجموع الفتاوى(٢٢/٦٠٦).

(١٤٨) رواه البخاري(١٦)ومسلم(٤٣).

مثال تطبيقي:التعبد باسم الله (الرحمن).

لاشك أن الرحمن من أسماء الله عز وجل وأدلته أظهر من أن تذكر،وهو من جملة الأسماء التي يرجع إليها جميع الأسماء والصفات؛إذ يرجع إلى هذا الاسم العظيم صفات الرحمة والإحسان والبر واللطف والمن والرأفة والجود(١٤٩).

معنى اسم الله الرحمن:

الرحمن هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لكل شيء: (ورحمتي وسعت كل شيء)[طه ٥]،ولذا اقترن اسم الرحمن بالاستواء على العرش ؛لأن العرش محيط بالمخلوقات وقد وسعها ورحمته شاملة لهم،فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات(١٥٠).

التأمل في آيات الله وأفعاله الدالة على رحمته:

ومن تأمل في مخلوقات الله فإنه سيرى آثار الرحمن ظاهرة،فما من مخلوق في السماوات والأرض إلا ويمكن أن تصل عن طريق التأمل في حاله إلى معرفة رحمة الله بخلقه:

(رحمة الله في الكون والحيوان)

ــ انظر إلى السماء ألا تراها ممسوكة أن تقع ،وهذه الأرض لا تحيد ولا تميد،فمن الذي أمسكهما برحمته إلا الرحمن(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا)[فاطر ٤١].

وتأمل ختام الآية، فلولا رحمة الله بعباده حين لم يؤاخذهم بذنوبهم ،ولولا حلمه ومغفرته لأسقط عليهم السماء (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)[فاطر ٤٥].

ــ ومن رحمته أن جعل الجبال أوتادا للأرض تثبتها فلا تضطرب(والجبال أوتادا)[النبأ ٧]،(والجبال أرساها)[النازعات ٣٢].

---

(١٤٩) الأسماء التي يرجع إليها جميع الأسماء والصفات ثلاثة،وهي:الله،الرب،الرحمن،ومن العلماء من يعيدها إلى الله والرحمن،ومعلوم أن جميعها يرجع إلى لفظ الجلالة الله.انظر مجموع الفتاوى(١/٣٧٩)مدارج السالكين(١/١٣،٤٢)الفوائد(٤٣)فتح الباري(١٠/٥٧١).

(١٥٠) انظر مدارج السالكين(١/٤٢)تفسير القرآن العظيم(١/٢٢)،وقيل الرحمن من الرحمة صفته،والرحيم الراحم لعباده فالاسم الأول للوصف والثاني للفعل،وقيل الرحمن ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الآخرة وقيل في الدنيا والآخرة واستظهره الشنقيطي.انظر شأن الدعاء(٣٥ــ٣٩)بدائع الفوائد(١/٢٣)أضواء البيان(١/١٠٢).



ــ وهذه الشمس تبلغ حرارة سطحها (٦٠٠٠) درجة مئوية،وحرارة جوفها تبلغ(٢٠)مليون درجة مئوية،وألسنة اللهب ترتفع عن سطحها إلى نصف مليون كيلو متر،وهي تبتعد عن الأرض قريبا من (٩٣) مليون ميل،ولا يصل إلى الأرض من حرارتها إلا شيء قليل لا يتجاوز جزءا من مليون جزء من حرارتها،وهو القدر الملائم لحياة البشر،ولو كانت أقرب إلى الأرض بقليل لاحترقت الأرض وانصهرت أو استحالت بخارا يتصاعد إلى الفضاء،ولو كانت أبعد من ذلك لأصاب التجمد ما على سطح الأرض،،فمن الذي برحمته جعلها كذلك.

ــ والقمر في حجمه وبعده عن الأرض من أظهر ما يدل على رحمة الله،فلو كان أكبر من ذلك بقليل أو أقرب لكان المد الذي يحدث في البحار كافيا لغمر الأرض بطوفان يعم كل ما عليها(١٥١).

ــ ومن رحمته أن كبير الوحش لا يعض صغيره، ويرفع قدمه عنه ،ويعطف عليه ،ويحضر طعامه وشرابه مع أنها وحوش كاسرة وحيوانات مفترسة،وفي الحديث: (إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس،والبهائم والهوام ،فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها ،وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)،وفي رواية(حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)(١٥٢).

ــ ومن رحمته أن ترى الطير تسهر ليلها لتصطاد حتى إذا استيقظت أفراخها صباحا كان عندهن طعامهن،وفي الحديث عن ابن مسعود: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تَفرش فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (من فجع هذه بولدها،ردوا ولدها إليها)(١٥٣).

ــ ومن رحمته أن ذلل للإنسان الحيوان البهيم وجعله سميعا بصيرا ليبلغ الإنسان حاجته منه (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون،وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون،ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون)[يس ٧١ــ٧٣].

ــ ووالله لا يقطر قطر من السماء،ولا تسقط ورقة من شجرة إلا برحمة،ومن رحمته أن (يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من

---

(١٥١) انظر مباحث في إعجاز القرآن لــ:د.مصطفى مسلم(١٩٥ــ١٩٧).

(١٥٢) رواه البخاري(٦٠٠٠)ومسلم(٢٧٥٢)واللفظ له،والحديث من باب التعبير باسم الصفة عن المفعول بها فيسمى المرحوم به رحمة ،ولذا في رواية لمسلم: (خلق الله مائة رحمة).انظر الجواب الصحيح(٢/١٥٨)درء تعارض العقل والنقل(٧/٢٦١ــ٢٦٢)مجموع الفتاوى(٤/٢٢٨).

(١٥٣) رواه أبو داود(٢٦٧٥)وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢٦٧٥،٤٣٨٨)والسلسلة الصحيحة(٢٥) ،وفي النهاية في غريب الحديث(١/٤٣٩):"الحُمَّرة بضم الحاء وتشديد الميم ،وقد تخفف:طائر صغير كالعصفور"،وفي معالم السنن(٣/١٢٥):"قوله(تفرش) أو (تعرش)معناه ترفرف،والتعريش مأخوذ من فرش الجناح وبسطه،والتعريش أن يرتفع فوقها ويظلل عليها".

يشاء من عباده إذا هم يستبشرون،وإن كانوا من قبل أن يترل عليهم من قبله لمبلسين ،فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير)[الروم ٤٨ــ ٥٠].

ولذا فما تلك البذرة التي تزرع فإذا بها دوحة في السماء وارفة الظلال كثيرة الثمار تمنح الناس ثمارها إلا أثر من آثار رحمة الله.

(رحمة الله بالإنسان)

ــ وأما أنت أيها الإنسان:فمن الذي برحمته أوجدك،و لم تكن شيئا مذكورا: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا،إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)[الإنسان ١ــ٢]،ومن الذي كلأك برحمته وأنت في بطن أمك في ظلمات ثلاث لا حول لك ولا قوة ،يأتيك طعامك وشرابك وأنت في قرار مكين وحصن أمين.

ومن الذي برحمته سهل لك مخرجك،ثم رقق لك قلب أمك حتى تقبل عليك فتقبلك وتضمك بعد ذلك الجهد الجهيد الذي أصابها،ثم هداك لطعامك وشرابك ورقق لك قلب أبيك حتى سعى في تحصيل لقمتك وتسهيل معيشتك،وخلقك خلقة سوية ووهبك عقلا تدرك به محاسن أمورك ومساوئها،ثم أحاطك بنعمه ومننه وأرسل لك رسله ليرشدوك إلى نجاتك وسعادتك،وخصك برسول الهدى والرحمة الذي أرسله بالرحمة للعالمين(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[الأنبياء ١٠٧]،قال ابن القيم:" فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم،فمن أعطى اسم الرحمن حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب وأدرك منه أولو الألباب أمرا وراء ذلك"[١٥٤].

ــ وإن من أعظم النعم أن هداك الله للإسلام ووفقك للإيمان دون سبب منك أو نسب، بل بفضل محض ،ثم إن من رحمته سبحانه أن شرع للعباد شرعه،فلا تظن أن رحمته مختصة بما وهب وأعطى بل إن من رحمته أن شرع فأوجب ومنع ،ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك: الصلاة فهي تفيض بمعاني الرحمة لمن تأمل،ويكفي أنها صلة بين العبد الضعيف وخالقه وسيده ومولاه،فهذه الصلة وتلك المخاطبة بكلام الملك العظيم في اليوم خمس مرات بل وأكثر لمن تطوع لهي من أعظم ما يبين رحمة الله بعبده، وهل سعادة

(١٥٤) مدارج السالكين(١/١٤).

العبد وسلوته وأنسه إلا بخالقه ،ومن من ملوك الدنيا يأذن لرعيته بأن يلجوا عليه في اليوم خمس مـــرات ،قال أبو بكر المزني:"من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين المحراب وبين الماء،كلما شئت دخلت على الله عز وجل،وليس بينك وبينه ترجمان".

ثم إن الله تعالى أذن لك أن ترفع حوائجك إليه في أي وقت شئت، بل ورغبك في ذلك دون أن تستأذن حاجبا أو خادما ثم وعدك على ذلك بإجابة سؤالك وطلبك فأي رحمة أعظم من تلك الرحمة.

وهذه المرأة المسلمة لو تأملت ما شرعه الله لها من منطلق هذا الاسم العظيم لاطمأن قلبها وسمت بالإيمان نفسها و لم تعترض على أحكام ربها،وكيف تعترض على ما هو رحمة بها وحفظ لها ،فالله برحمته شرع لها ما حفظ لها حياءها وحشمتها وجعلها درة مصونة وجوهرة مكنونة.

(رحمة الله بالعفو والتوبة)

ـــ وإن من أعظم ما يبين رحمته بعباده أن فتح لهم بابه ووعدهم بالمغفرة والستر والتوبة،بل هاهو سبحانه ينادي عباده إليه : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا)[التحريم ٨]،(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[النور ٣١]وفي الصحيح(إن الله عز وجل يبسط يده بالليـــل ليتـــوب مـــسيء النهار،ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[١٥٥]،وفي الحديث: (يـــتترل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر،فيقول:من يدعوني فاســـتجيب له،من يسألني فأعطيه،من يستغفرني فاغفر له)[١٥٦].

بل ولو تكاثرت ذنوب العبد فإن الله يغفرها له ويتجاوز عنه(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفـــور الـــرحيم)[الزمـــر ٥٣]،وفي الحـــديث القدسي:(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)[١٥٧].

وصح عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمدا صـــلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فترل: (والـــذين لا

---

(١٥٥) رواه مسلم(٢٧٥٩).

(١٥٦) رواه البخاري(٧٤٩٤)ومسلم(٧٥٨).

(١٥٧) رواه الترمذي(٣٥٤٠)وقال:"حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه"،وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(٢٨٠٥).



يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون)[الفرقان ٦٨]، ونزل : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) [الزمر ٥٣][١٥٨].

ثم ألا ترى ربك يعفو ويغفر لمن أسرف على نفسه فقتل مئة نفس،جاء في الصحيح: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا، فقتله فكمل به مئة ،ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مئة نفس فهل له من توبة فقال نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فأنطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله ،وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ،فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ،فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة)[١٥٩].

(الفرح الإلهي)

يا عبد الله وهل أعظم رحمة وأجل رأفة من أن يفرح بتوبتك خالقك وسيدك مع غناه عنك وفقرك إليه،صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح)[١٦٠].

إن هذا الحديث لهو من أعظم ما يبين رحمة الله بعباده،ولا يظن ظان أن هذا الفرح فرح حاجة وافتقار، فالله تعالى له الغنى المطلق وهو الصمد القيوم الذي يقوم غيره به وهو القائم بنفسه سبحانه: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ،يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ،يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم

(١٥٨) رواه البخاري(٤٨١٠)ومسلم(١٢٢).

(١٥٩) رواه البخاري(٣٤٧٠)ومسلم(٢٧٦٦).

(١٦٠) رواه البخاري(٦٣٠٨)ومسلم(٢٧٤٧)واللفظ له.



وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)(١٦١).

وإنما هذا الفرح فرح بر وإحسان ورحمة،قال ابن القيم:" وهذه فرحة إحسان وبر ولطف لا فرحة محتاج إلى توبة عبده منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده إحسانا إليه ومحبة له وبرا به لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ذلة ،ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة ،ولا يستعين به في أمر (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا)[الإسراء ١١١] فنفى أن يكون له ولي من الذل "(١٦٢).

وإن القلب ليقف محبا معظما أمام هذا الفرح الإلهي،بل إن العبارة لتعجز عن وصف أو بيان،ولذا يطلق ابن القيم على هذا الفرح:" السر الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة،ولا تحسر عليه الإشارة،ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رءوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبة له وطمأنينة به وشوقا إليه ولهجا بذكره وشهودا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه ومطالعة لسر العبودية وإشرافا على حقيقة الإلهية"(١٦٣).

ومن رحمته أن وعد المسيء بتبديل سيئاته حسنات،قال تعالى: (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما)[الفرقان ٧٠].

ومن رحمته أنه لا يؤاخذك بمعاصيك،بل يكلؤك ويرعاك ويعفو عنك ويمهل أمرك،فأي رحمة أعظم من ذلك،مر ذو النون المصري على شاطئ غدير فنظر فإذا عقرب عظيم واقفة على شاطئ الغدير إذ جاءت ضفدع من الغدير فركبتها العقرب فسبحت بها حتى عبرت الغدير،فتبعها ذو النون فإذا رجل نائم سكران وإذا حية صعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أذنه فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها ثم رجعت العقرب إلى الغدير فجاءت الضفدع فأعادتها إلى مكانها،فحرك ذو النون الرجل ففتح عينيه،فقال يا فتى انظر مما نجاك الله،هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك،ثم قال:

يا غافلا والجليل يحرسه	من كل سوء يدب في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك	تأتيه منه فوائد النعم

---

(١٦١) رواه مسلم(٢٥٧٧).

(١٦٢) مدارج السالكين(١/٢١٦ـــ٢١٧)وانظر مفتاح دار السعادة(١/٢٨٦).

(١٦٣) مدارج السالكين(١/٢٣٠ـــ٢٣١).



فنهض الفتى،وقال:إلهي هذا فعلك بمن عصاك،فكيف رفقك بمن يطيعك،ثم تاب وتعبد[١٦٤].

وما حال العبد مع خالقه إلا كما قال ابن القيم:"دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه ،ثم فتحه له فما عرَّج عليه ولا ولجه، أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته فعصى الرسول،وقال لا أبيع ناجزا بغائب ونقدا بنسيئة ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به ويقول:

خذ ما رأيت ودع شيئا سمعت به　　　في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فإن وافق حظه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه لا لرضى مرسله لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه حتى أعرض عنه وأغلق الباب في وجهه ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته بل قال متى جئتني قبلتك إن أتيتني ليلا قبلتك وإن أتيتني نهارا قبلتك،وإن تقربت مني شبرا تقربت منك ذراعا وإن تقربت مني ذراعا تقربت منك باعا ،وإن مشيت إليَّ هرولت إليك، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ومن أعظم مني جودا وكرما ،عبادي يبارزونني بالعظائم وأنا أكلؤهم على فرشهم، إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي ،خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ،ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ،ومن أعرض عني ناديته من قريب،ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد، أهل ذكري أهل مجالستي ،وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي ،وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين،وإن لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب ،من آثرني على سواي آثرته على سواه،الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة والسيئة عندي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له، أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي ،وعفوي سبق عقوبتي"[١٦٥].

فما أعظم رحمة الله،وحقا إن اسم الله الرحمن رسالة الله إلى كل مذنب ومبتعد أن أقبل إلى من هو أرحم بك من والدتك بل ومن نفسك.

(١٦٤) قصص التوابين(٢٢٦ـ٢٢٧).

(١٦٥) مدارج السالكين(١/٢١٥ـ٢١٦).





(حديث عظيم يبين رحمة الله)

ولك أن تقرأ هذا الحديث خاشعا مستشعرا ما فيه من عظيم الرحمة: عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة،فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين،فترفع له شجرة فيقول أي رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها ،فيقول الله عز وجل يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها،وربه يعذره؛ لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ،ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها ،فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها،فيقول لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره؛ لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ،ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين،فيقول أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها ،فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، قال بلى يا رب هذه لا أسألك غيرها وربه يعذره؛ لأنه يرى مالا صبر له عليها فيدنيه منها، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة فيقول أي رب أدخلنيها، فيقول يا ابن آدم ما يصريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها، قال يا رب أتستهزئ مني وأنت رب العالمين، فضحك ابن مسعود فقال ألا تسألوني مم أضحك، فقالوا مم تضحك قال هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقالوا مم تضحك يا رسول الله قال من ضحك رب العالمين حين قال أتستهزئ مني وأنت رب العالمين ،فيقول إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر)[١٦٦].

آثار التعبد باسم الله الرحمن:

وإن من تأمل هذا الاسم الكريم أثمر ذلك في قلبه أمورا عظيمة،ومنها:

أولا: الحب:

فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وكيف لا يحب الإنسان من أفاض عليه رحمته وعطفه ومنته وفضله ومن هو أرحم به من أمه ،جاء في الصحيح أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١٦٦) رواه مسلم(١٨٧)ورواه البخاري(٦٥٧١)مختصرا،وفي شرح النووي لمسلم(٣/٣٧):"(ما يصريني منك):هو بفتح الباء وإسكان الصاد المهملة،ومعناه يقطع مسألتك مني،قال أهل اللغة:الصرى:بفتح الصاد وإسكان الراء هو القطع".

بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغى إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار)، قالوا :لا والله وهي تقدر على أن لا تطرح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[١٦٧].

ثانيا:الرجاء وحسن الظن بالله:

قال العز بن عبد السلام:"من عرف سعة رحمة الله كان حاله الرجاء"[١٦٨]،وفي الصحيح: (قال الله تعالى :أنا عند ظن عبدي بي)[١٦٩].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل: (قال أذنب عبد ذنبا فقال اللهم اغفر لي ذنبي،فقال تبارك وتعالى:أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب ،فقال أي رب اغفر لي ذنبي،فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب،ثم عاد فأذنب فقال أي رب اغفر لي ذنبي،فقال تبارك وتعالى:أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ما شئت فقد غفرت لك)[١٧٠].

وفي الحديث: (أسرف رجل على نفسه(وفي رواية لم يعمل حسنة قط) فلما حضره الموت أوصى بنيه،فقال إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في الريح في البحر فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه به أحدا، قال ففعلوا ذلك به فقال للأرض أدى ما أخذت فإذا هو قائم ،فقال له ما حملك على ما صنعت،فقال خشيتك يا رب أو قال مخافتك،فغفر له بذلك)[١٧١].

وقد دخل حماد بن سلمة على الثوري،فقال سفيان:أترى أن الله يغفر لمثلي،فقال حماد:والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي لاخترت محاسبة الله؛وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي.

ومما يزيد العبد تعلقا بربه وإحسانا الظن به أن الله تعالى يشكر عمل عبده مع قلته بل ويغفر لصاحبه بسببه،وفي الحديث: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له)،قالوا يا

---

(١٦٧) رواه البخاري(٥٩٩٩)ومسلم(٢٧٥٤).

(١٦٨) مختصر الفوائد في أحكام المقاصد(٢٠٣ــ٢٠٤)وانظر شجرة المعارف والأحوال(٨٣).

(١٦٩) رواه البخاري(٧٥٠٥)ومسلم(٢٦٧٥).

(١٧٠) رواه البخاري(٧٥٠٧)ومسلم(٢٧٥٨).

(١٧١) رواه البخاري(٧٥٠٦)ومسلم(٢٧٥٦).



رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرا ،فقال : (في كل كبد رطبة أجر)،وفي لفظ(أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها)[١٧٢].

وفيه: (كان على الطريق غصن شجرة يؤذي الناس فأماطها رجل فأدخل الجنة)[١٧٣].

وفيه: (كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا،فتجاوز الله عنه)[١٧٤].

وإن من حسن الظن بالله أن ترى البلاء رحمة ونعمة فكم من محنة محصت الذنوب ونبهت من الغفلة وذكرت بالنعمة،وكم من محنة أصبحت منحة أعادت إلى الله وأنقذت من شرك الشيطان:

إذا سر بالسراء عم سرورها وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وما منهما إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والبر والبحر

فإذا أصابك البلاء فهو رحمة،وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم الطاعون رحمة،فعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون،فخبرها صلى الله عليه وسلم: (أنه كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد)[١٧٥].

ولو لم يكن في البلاء إلا تكفير الذنوب لكفى في كونه رحمة وفضلا ،وفي الحديث: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)[١٧٦]،وفيه: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها)[١٧٧]،وفي الترمذي:(ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)[١٧٨].

وقد يرى العبد الأمر شرا وهو خير له كما رأى موسى فعل الخضر شرا فكان خيرا.

---

(١٧٢) رواه مسلم(٢٢٤٥،٢٢٤٤)وروى البخاري قصة البغي(٣٣٢١).

(١٧٣) رواه ابن ماجه(٣٦٨٢)وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه(٢٩٦٩).

(١٧٤) رواه البخاري(٢٠٧٨)ومسلم(١٥٦٢).

(١٧٥) رواه البخاري(٥٧٣٤).

(١٧٦) رواه البخاري(٥٦٤١ــ٥٦٤٢)واللفظ له ،ومسلم(٢٥٧٣).

(١٧٧) رواه البخاري(٥٦٤٠)ومسلم(٢٥٧٢).

(١٧٨) رواه الترمذي(٢٣٩٩)،وقال:" حديث حسن صحيح"والحاكم(٣١٤/٤)،وقال:" حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه"وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(١٩٥٧).

ثالثا:الحياء:

إن التأمل في إحسان الله ورحمته يورث العبد حياء منه سبحانه وتعالى،فيستحي العبد المؤمن من خالقه أن يعصيه ،ثم إن وقع في الذنب جهلا منه استحيا من الله بعد وقوعه في الذنب،ولذا كان الأنبياء يعتذرون عن الشفاعة للناس بذنوبهم خوفا وخجلا،وإن هذا لأمر قل من ينتبه له،بل قد يظن كثير من الناس أن التوبة والعفو قد غمر ذنوبه فلا يلتفت إلى الحياء بعد ذلك.

كان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة والصوم حتى يصفر جسده فلما احتضر بكى،فقيل له: ما هذا الجزع؟،فقال: مالي لا أجزع،والله لو أتيت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه مما قد صنعت،إن الرجل ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحييا منه.

و(الله أحق أن يستحيا منه من الناس)[١٧٩].

رابعا:رحمة الخلق:

ومن استشعر رحمة الله تعالى وشاهد ذلك بقلب صادق أفاض على قلبه رحمة الخلق،ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق بالخلق،وسماه ربه رحيما فقال تعالى:(بالمؤمنين رؤوف رحيم)[التوبة ١٢٨].

وقد أبصر الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن،فقال :إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه من لا يرحم لا يرحم)[١٨٠].

ولما قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا :أتقبلون صبيانكم،فقالوا نعم، فقالوا لكن والله ما نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة)[١٨١].

وتتبين آثار رحمته صلى الله عليه وسلم حينما رأى ابنه إبراهيم وهو يصارع سكرات الموت، قال أنس لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون)وفي رواية البخاري: (فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله فقال: (يا ابن عوف إنها رحمة)[١٨٢].

---

(١٧٩) هو قطعة من حديث رواه أبو داود(٤٠١٧)وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٣٣٩١).

(١٨٠) رواه البخاري(٥٩٩٧)مسلم(٢٣١٨).

(١٨١) رواه البخاري(٥٩٩٨)مسلم(٢٣١٧).

(١٨٢) رواه البخاري(١٣٠٣)مسلم(٢٣١٥).



وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الرحمة بل وجعلها سببا لرحمة الله تعالى،وجعل من نزعت منه الرحمة شقيا،فقال صلى الله عليه وسلم: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل)(١٨٣)،وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تنزع الرحمة إلا من شقي)(١٨٤)، وكان ابن لبعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم يقضي فأرسلت إليه أن يأتيها فأرسل:(إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب)،فأرسلت إليه فأقسمت عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أسامة ومعاذ بن جبل وسعد بن عبادة ،فلما دخل ناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبي ونفسه تقعقع في صدره فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال سعد بن عبادة أتبكي فقال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)(١٨٥)،وفي الترمذي:(الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)(١٨٦).

قال الطيبي :"أتي بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق فيرحم البر والفاجر والناطق والبهم والوحوش والطير"(١٨٧).

(رحمة تغيب عن كثير من الأذهان)

ومن الرحمة التي تغيب عن كثير من الأذهان رحمة عموم الخلق مسلمهم وكافرهم،قال ابن تيمية في أهل البدع: (ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر ـــ والحيرة مستولية عليهم،والشيطان مستحوذ عليهم ـــ رحمتهم ورفقت عليهم،وأتوا ذكاء وما أتوا زكاء،وأعطوا فهوما وما أعطوا علوما،وأعطوا سمعا وأبصارا وأفئدة(فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)[الأحقاف ٢٦](١٨٨).

وقال ابن القيم:

وانظر بعين الحكم وارحمهم بها	إذ لا ترد مشيئة الديان
وانظر بعين الأمر واحملهم على	أحكامه فهما إذا نظران
واجعل لقلبك مقلتين كلاهما	من خشية الرحمن باكيتان

---

(١٨٣) رواه البخاري(٧٣٧٦)ومسلم(٢٣١٩)واللفظ له.

(١٨٤) رواه الترمذي(١٩٢٣)،وقال:" حديث حسن "،وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي(١٥٦٨).

(١٨٥) رواه البخاري(٧٣٧٧)ومسلم(٩٢٣).

(١٨٦) رواه الترمذي(١٩٢٤)وقال:" حديث حسن صحيح"،وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(١٥٦٩)والسلسلة الصحيحة(٩٢٥).

(١٨٧) تحفة الأحوذي(٦/٥١).

(١٨٨) الفتوى الحموية(٥٥٣)وانظر كلاما جميلا عن ذلك في مدارج السالكين(١/٤٥٩).



لو شاء ربك كنت أيضا مثلهم فالقلب بين أصابع الرحمـــن

(تنبيهان)

وختاما للتأمل في هذا الاسم الكريم لا بد من التنبيه على أمرين:أولهما: أن رحمة الله الخاصة إنما تحـــصل بطاعة الله واتباع مرضاته فالله عز وجل يقول : (إن رحمت الله قريب من المحسنين)[الأعراف ٥٦].

وليس لمن عصى الله أن يتعلق باسمه الرحمن ليستمر في العصيان فالله تعالى يقول: (نبئ عبـــادي أني أنـــا الغفور الرحيم،وأن عذابي هو العذاب الأليم)[الحجر ٤٩ــ٥٠]،وقد حج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك فأصابهم برق ورعد كادت تنخلع له قلوبهم،فقال سليمان:هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها،قال:يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله فكيف لو سمعت صوت عذاب الله.وفي الحديث: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ،ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[١٨٩].

ثانيهما:أن ما ذكر من آثار وتأملات في هذا الاسم الكريم إنما هي قطرة من بحر وزهرة من بـــستان،فلو سودت الدفاتر والأوراق كلها لما أدركت جميع ما في هذا الاسم من الأسرار والمعاني،وهكذا كل اســـم من أسماء الله تعالى،وإنما هي فتوحات يفتح الله بها لكل عبد بحسبه،ولو اجتمعت فتوحات الخلق جميعا لما أدركوا جميع ما في كل اسم من أسماء الله تعالى.

(١٨٩) رواه البخاري(٦٤٦٩)بلفظ مقارب،ومسلم(٢٧٥٥)واللفظ له.

الـــخــــــاتـــمـــــة

هذا آخر ما أمكن القلم أن يسطره في هذا الموضوع العظيم،وكأني بالقارئ الكريم وقد أخذته تلك المباحث إلى جنان من المعرفة فأصبح يطوف بين حدائق غناء وثمار يانعة كأني به سيبدي اعتراضه بعد بدوه في فلاة العرفان وظهور اشتياقه على تقدم الخاتمة عن محلها،غير أنه أمر لا بد منه،وعذري له أن القلم يقف عاجزا عن الاستقصاء في هذا الباب العظيم من الديانة،ولعل فيما طرق كفاية،وفيما أوضح إلماحة إلى غيره مما لم يدون.

هذا وأذكِّر من ألقى في هذه الرسالة نظرة أو أحسن الظن بها فقرأها أن يتذكر أن كاتبها إنما هو ضيف على هذا الموضوع الذي هو مقصد الفحول من السائرين،وأن هذا البحث لا يعدو أن يكون كلمات يسيرة من خاطر مكدود وقلب مشتت وكاتب يشكو إلى الله تعالى عجره وبجره قد رام جبالا من المعرفة وسلك مسلكا مصعدا فيه بعد طول تردد وانقباض في القلم غير أن توجه النصيحة أوجب الكتابة والتدوين مع كثير من العجز والتقصير في سلوك طريق القوم،فيا من وقف عليه خذ ما فيه من الخير واستغفر لراقمه واسأل الله الفتاح شيئا من فتوحه،وإن رأيت غير ذلك فعليك بالستر والنصح والتنبيه فكل أحد من البشر قد ورد مورد الخطأ إلا الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

اللهم افتح لي ولكل من وقف عليه بفتح من عندك فإن بيدك مفاتيح الخير وإنك أنت الفتاح العليم،واجعلنا ممن يحبب عبادك إليك ويحببك إلى عباده،واجعلنا مباركين أينما كنا،واغفر لنا تقصيرنا وإسرافنا في أمرنا،واجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم.

والله تعالى أعلم وأحكم،والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات،وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

فهـــــرس الموضوعات

من يحتاج إلى هذا الموضوع؟.

أركان التعبد بالأسماء والصفات.

الأول: (الإيقان بالاسم على كماله وحسنه،والصفة على تمام الاتصاف بها).

الثاني: (أن يعامل كل اسم أو صفة بما يقتضيه ذلك الاسم أو تقتضيه تلك الصفة).

(الاتصاف بموجب الاسم والصفة).

مراتب التعبد بالأسماء والصفات.

(درجة الكمال في التعبد بالأسماء والصفات).

طرق الوصول إلى التعبد بالأسماء والصفات.

الطريق الأول: (التأمل في الأسماء والصفات،وفهم معانيها والتدبر فيها).

(التأمل في اسم الله الجبار).

(التأمل في صفة العلو).

(التأمل في صفة العلم).

(التأمل في صفة السمع).

(التأمل في اسم الله البصير).

(التأمل في صفة القيومية).

(التأمل في اسم الجلالة الله).

الطريق الثاني:التأمل في مفعولات الله وآياته الكونية.

(التأمل في الكون وما فيه).

(التأمل في الملائكة).

الطريق الثالث:التأمل في نعم الله ومنته على العبد.

(التأمل في بعض نعم الله على النفس).

الطريق الرابع:النظر في الآيات الشرعية والأحكام الربانية.

(أمثلة على التأمل في الآيات الشرعية والأحاديث النبوية).

(أمثلة على التأمل في الأحكام الشرعية)



آثار التعبد بالأسماء والصفات.

أولا:محبة الله.

(حب الله هو الفطرة).

(سرور القلب بمحبة الله).

(محبة الله باعث التوحيد والطاعة).

ثانيا: الذل والتعظيم.

(سجود القلب).

ثالثا:الخشية والهيبة.

رابعا:اليقين والسكينة والطمأنينة.

خامسا:الرضا.

سادسا:التوكل.

سابعا:الدعاء.

ثامنا:الإخلاص.

تاسعا:التلذذ بالعبادة.

(خفة العبادة بسبب لذتها).

(تأمل الأسماء والصفات طريق للذة العبادة).

مثال تطبيقي:التعبد باسم الله (الرحمن).

معنى اسم الله الرحمن.

التأمل في آيات الله وأفعاله الدالة على رحمته.

(رحمة الله في الكون والحيوان).

(رحمة الله بالإنسان).

(رحمة الله بالعفو والتوبة).

(الفرح الإلهي).

(حديث عظيم يبين رحمة الله).

آثار التعبد باسم الله الرحمن.



للتواصل مع المؤلف:

waled_wadan@hotmail.com

أو wfw1988@hotmail.com

أوwfwwfw@ gawab.com

